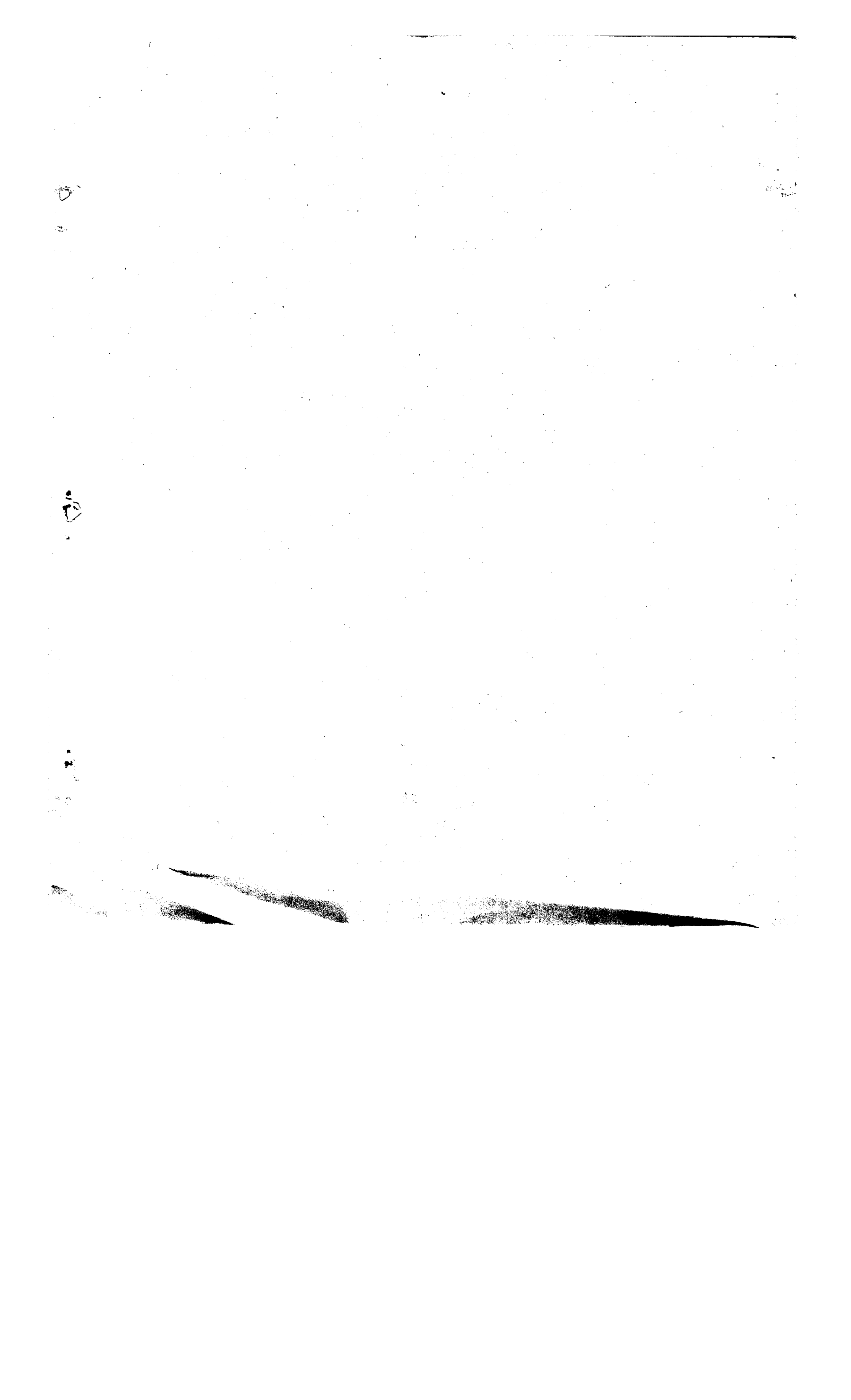
القصـــة
فى شعر عمر بن أبى ربيعة

دكتور
محمد حامد شريف
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالمنصورة

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شعاع من كتاب الله

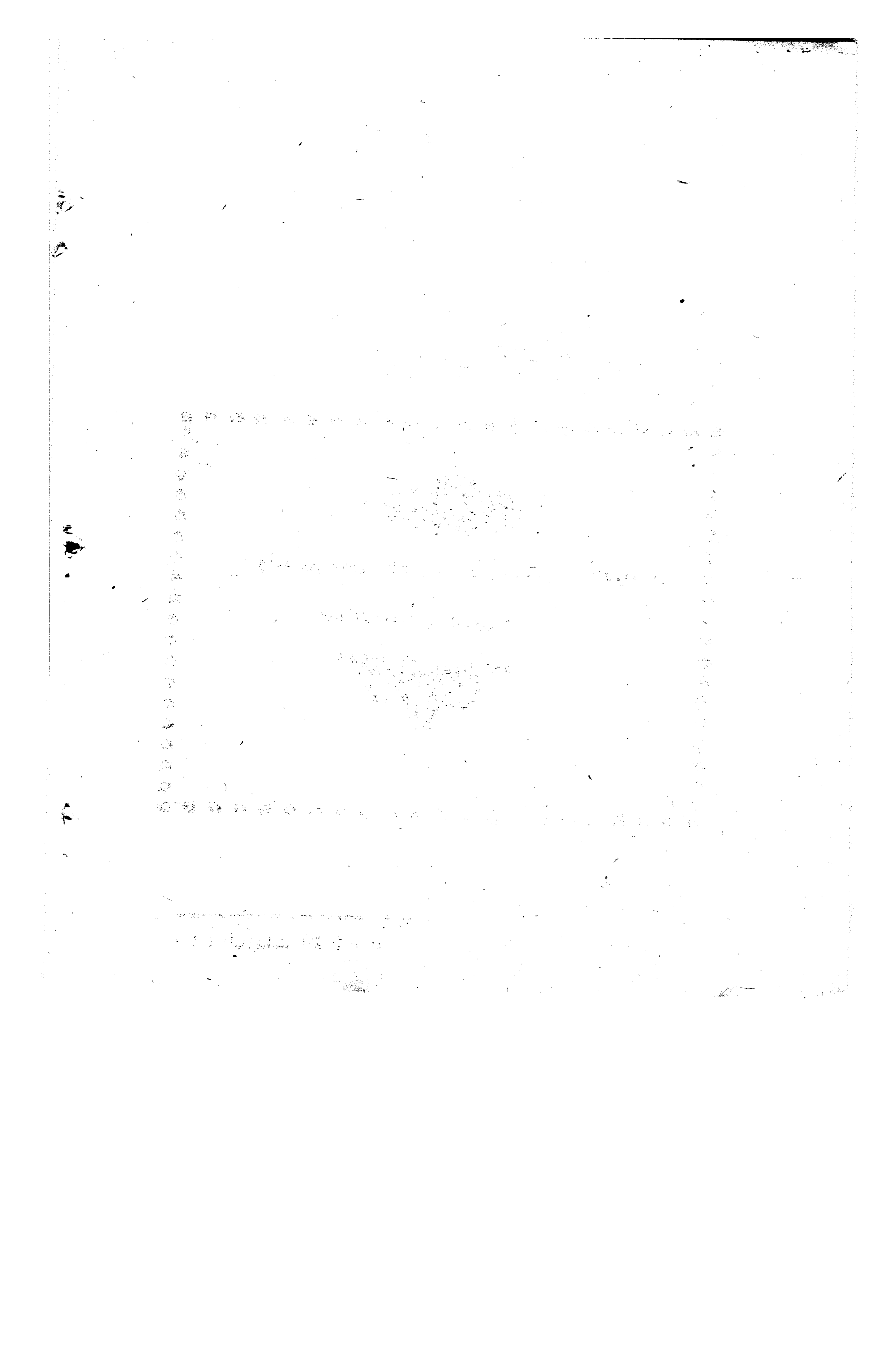


" وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى

فإن الجنة هى المأوى " (١)



(١) النازعات آية ٤٠ - ٤١



« بسم الله الرحمن الرحيم »

« مقدمـــة »

منذ عامين تقريبا كنت قد وضعت خطة واضحة المعالم حول هذا الموضوع ثم حالت دون إكماله حوائل اقتضاني بعضها الانصراف عن عمر والكتابة فى مواضيع أخرى .

والحديث عن عمر بن أبى ربيعة متشعب الجوانب وما بالك بشاعر لم يعرف فى تاريخ الأدب العربى كله من قصر شعره على حب النساء ومدحهن ، كما لم يعرف من تعلقت جماعات النساء بحبه مثله !

وبرغم ما عُـرف فى العصر الأمـوى من قصص عاطفى : كقصـة « مجنون ليلى » و « قيس لبنى » و « جميل بثينة » .. وما وعته هذه القصص من أفكار هى صفوة تجربة العصر فى استنباط الحقائق والسرائر وفى الكشف عن الروح الشرقى والعربى وما فيها من تمثيل للمجتمع العربى ومعيشته وتفاعل بيئته ... برغم هذا كله تظل قصة ابن أبى ربيعة معلمًا فريدًا ، إذ تمثِّل طفرةً فنية فى مجال القصة فى الشعر العربى .

***

وقد قصدتُ من وراء هذا البحث أن أعمِّق فكرة وجود القصة فى الشعر العربى القديم واكتمال مقوماتها الأساسية - الفنية - فى شعر عمر .

بيد أنه من الجدير بالذكر أن أقول : إن مقومات القصة إنما تتضح فى

بعض قصائده لا في كل أشعاره ، كما وجدت في أشعاره المشهد ذا الحوار شيئًا بارزًا - وإن تكرر - في ديوانه كما جاء في وصفه للحبيبة من باب السرد القصصي ، لهذا استعنتُ بأمثلة من هذا وذاك لتكمل الفائدة ورأيتُ ضرورة التنبيه .

راجيا السداد والتوفيق ،

" وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " .

المنصورة في : شوال ١٤١٢ هـ
أبريل ١٩٩٢ م

دكتور
محمد حامد شريف

تمهيد :

القصة : " مجموعة من الاحداث يرويها الكاتب ، وهى تتناول حادثة واحدة أو حوادث عـدَّة ، وهى تتعلق بشخصياتٍ إنسانية مختلفـة. تتباين أساليب عيشها وتصرفها فى الحياة ، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض . ويكون نصيبها فى القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير . والقصةُ مهما كان نوعها ، هى فى حقيقتها نوع من الحكاية " (١)

موضوع القصة :

ابن أبى ربيعة شاعر مكى (٢) . من أثرياء عصره كان له من شبابه وجماله وثروته وشاعريته ... ما سَهَّل له سُبل الملذات ، فشغل نفسه بالمرأة الحسناء يتَّبعها فى كل مكان ، ويقطع من أجلها الفيافى والفلوات !

ومن أجلها زهد فى ثروة أبيه فتركها بأيدى رجال يعملون له

---

١ - فن القصة د / يوسف نجم ص ٩ ٧١٠

٢- هو عمر بن أبى ربيعة (٢٣ - ٩٣) هـ (٦٤٤ - ٧١١) م كنيته "أبو الخطاب" قرشى الأب يمنىّ الأم فقيل فى غزله : " عشقٌ يمانى ودلّ حجازى " وأسرته واسعة الثراء . هى أسرة بنى مخزوم منها هشام بن المغيرة الملقب بربّ قريش . وأخوه الوليد من سادات مكة . وفيه نزل قوله تعالى : " وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم " وكان والد عمر (عبد الله) عاملاً للنبى ﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده . كما كان جد عمر (أبو ربيعة) من شجعان قريش قيل عنه : كان لا يقاتل إلا برمحين (راجع التطور والتجديد فى الشعر الأموى د / شوقى ضيف ص ٢٦٩ وأدباء العرب بطرس البستانى ص ٢٩٣ . وزهرة الآداب للحصرى ص ٢٩١).

فيها. كما زهد فى الإمارة والولاية ، فعهد بها إلى أخيه "الحارث" كما زهد فى مدح الخلفاء لانه أراد أن يمدح المرأة فحَسْب ، ومن أجلها كان يقضى أيامه لاهيا مستمتعا حتى إذا آن موسم الحج لبس الحلل الفاخرة ، وركب النجائب المخضوبة بالحنّاء ، وراح خارج مكة يتلقَى الحواجّ المدنيات والعراقيات والشآميات ، يتعرض لهن ، ولا يزال يترقب خروجهن للطواف فى الكعبة ، فيرى منهن مالا يراه فى خارج الحرم ، فيصفهنّ . متمتعًا بجمالٍ طالما سعى إليه :

إنى امروٌ موكلٌ بالحُسن أتبعَه لا حظَّ لى منه إلا لذّة النظر (١)

فكرة القصة :

ومن الموضوع ذاته أو من عمرَ نفسِه جاءت فكرة قصته التى هى - بإيجاز - خلاصة معاناة أو تأمل داخلى من خلال رؤية خاصة تتمّثل فى التجارب الغزلية التى خاضها بين عشّاقه ، وملاحظاته الجمالية والنفسية التى تخيّلها ، وهى فكرة قديمة قِدم الإنسان ، جديدة بتولّد غرائزه !

منطلقات الفكرة :

كثيرًا ما تنطلق الفكرة من حادثةٍ أو ذكرى حادثة ينسج منها أحداثا وأحاديث يجلو بها سرائرَ نفسه :

ذكر القلبُ ذِكْرةً أمّ زيـــدِ والمطايا بالسَّهب سَهْبُ الركابِ (٢)

١- الأغانى جـ١ / ١٤٧ ٢- ديوانه ص ٣٨٢

- وفى لحظة ما كانت الفكرة تُومض فى رأسه وميض البرق .

فقلتُ قولاً مصيبًا غيرَ ذى خطلٍ أتىٰ به حبُّها فى فِطنةِ الفكرِ (١)

- وسرعان ما تؤرِّقه الفكرة فينطلق من معاناة داخلية لأن يُجسِّد فكرته واقعًا ملموسا هو لقاء أو مغامرة ، نَرى الفكرة تؤرِّقه وقد استبدَّ به الهوى ، وهو يقول :

أرِقتُ ولم أملك لهذا الهوى ردًّا وأورثنى حبِّى وكتمانهُ جهدًا (٢)

- وهذه الفكرة التى راح يُجسِّدها ، قد يلعب الخيالُ دورًا فى نسج خيوطها ولا أتصوَّر عملاً فنيًا دون خيال !

- وقد تنطلق الفكرة من ذاته التى حُرمت لذَّة الوصال وتزاد فكرة تعلُّقهِ بالمرأة ويزدادُ إصراره على المغامرة : إذا امتنعتْ عليه !

فالنساء مناه وهنَّ حديث نفسه وملء سمعه وبصره :

أنتِ المنىٰ وحديثُ النفسِ خاليةً وفى الجميعِ وأنتِ السمعُ والبصَرُ(٣)

- وربما كان انطلاق فكرته من اعتقاده بأن الحب داء يُبتلى به المرءُ ولا مفرَّ منه :

ياذَا الذى فى الحبِّ يُلْحى أمَا تخشى عقابَ اللهِ فينا أمَـــا

تَعْلم أن الحبَّ داءٌ أمَـــا والله لو حُمِّلتَ منه كمَـــا

١- ديوانه ص ١١٧
٢- ديوانه ص ٣٢٤
٣- الديوان ص ١١٢

حُمِّلْتُ من حبٍّ رخيمٍ لَمَّـا ‏ ‏ لُمْتَ على الحب فدَعْنى وَمَـا (١)

- وسواء أكان منطلق قصّته واقعاً أم خيالا صرفا أم من الواقع والخيال فقد تطورت الفكرة لتوجه أحداث القصة كما يلى :

الحدث :

الحدث عند عمر بن أبى ربيعة طارئ ، كلقاءِ العشيقة ، مرتَجَل يلتقطه التقاطا ساذَجا أو عفويًّا بيد أنه ينبض بالحب !

- والحدث غالبًا هو أصل الحكاية التى هى منطلقه الفنى ، والتى لوّنت شعره بهذا اللون القصصى .

ولن نبالغ إذا قلنا : إن الحب عند عمر هو الحدث الرئيسى الذى شغل قلبه وتمكن منه فغرد لأجله كالبلبل الصدّاح ، وتيمه فأطلق العنان لعواطفه دونما قيد أو سلطان . فقصص ابن أبى ربيعة تكاد تنحصر أحداثها - كما قلنا - فى الحب ودوافعه !

- فهذه إحدى قصصه ، نقف على بعض مشاهدها لنتأمل ما بها من أحداث ومواقف :

المكان : - مسرح القصة - " ذو دوران " ‏ ‏ ‏ الزمان : ليلا :

١- الديوان ص ٥٠٠ وفى طبعة دار الكتب ص ٢٠٤ (يُلحى) بضم أول الفعل

وليلةَ ذِى دَوران جشَّمنى السُّرى (١) وقد يَجْشَمُ الهول المحبُّ المغرَرُ
فبتُّ رقيبًا للرفاق على شفــا أحاذر منهم من يطوفُ وأنظُــرُ
إليهمْ متى يستمكنُ النَّومُ منهـمُ ولى مجلس لولا اللبانةُ أوعَــرُ
وباتتْ قلوصى بالعراءِ ورحلُهــا لطارقِ ليلٍ أو لمن جاء مُعْوِرُ (٢)

فهو يمهّد للأحداث المقبلة ، ويوحى بها ويتحدث عن تهيئته للمغامرة وما حدث قبل أن يقترب من خبائها من مثل : أهوال الطريق ، وترك الأصدقاء والناقة يدعها فى العراء مباحة !

- ثم تتضح بعد ذلك المواقفُ أو الأحداثُ المتنوعةُ الغنيةُ ، المتمثلة فى حَيرة الاهتداء إلى خبائها ، فتفوح - من الخباء - رائحتُها الذكية فتهديــه ! :

فدلَّ عليها القلبُ ريَّا عرفتُهــا لهاَ ، وهوىَ النَّفس الذى كادَ يظهرُ
وبتُّ أناجى النَّفسَ أينَ خِباؤها وكيفَ لما آتِى من الأمرِ مَصْدَرُ (٣)

- ويستمر الحدثُ فى إطار من المناظر المتجددة والمشاهد الملوَّنة ، وتتعدد الجزئيات المادية للحدث والمتمثلة فى المصابيح المطفأة ، والقمر الغائب ، والرعيان الذين روَّحوا والصوت الذى أفناه السكون .. وهذا الرَّبط الشديد بين المعانى هو ما يسمى فى القصة بتداعى الأفكار

١- دوران : موضع بين قديد والجحفة ، وجشّمنى : كلفنى وفى طبعة دار الكتب ١٩٧٨م « جشمتنى السرى »

٢- ديوانه : ٩٥ وما بعده

٣- ديوانه : ٩٦

المؤدية للهدف :

فلما فقدتُ الصَّوتَ منهم وأُطفئت مصابيحُ شُبَّتْ بالعَشاء وأنــؤر

وغاب قُمير كنتُ أهـوىٰ غيوبَــه ! وروَّح رعيانٌ ونـوّم سمَّـــر

وخُفِّض عنّي الصوتُ أقبلتُ مِشية الْـ حُباب وشَخْصِي خَشْيةَ الْحيِّ أزوَرُ

- حينئذ يسير إليها بحذر ، ليفاجأها بزيارته :

فحيَّيتُ إذ فاجأتُهــا فتولَّهت وكادتْ بمخفوض التحية تجْهــر

وقالتْ وعضَّتْ بالبنان فضحْتني وأنت امرؤ ميسورٌ أمرِك أعسر (١)

هكذا يبدأ الحوار ، وفيه : تتكشف سرائرُ النفس والهوى ودوافع الشّوق والقلق .. ثم الإيناس والاطمئنان حتى الصباح !

فقالتْ : وقد لانتْ وأفرخ روعُها كلاكَ بحفظٍ ربُّك المتــكبِّرُ (٢)

ولا يغفل عمر عن التشبيب بنفسه ! وكيف يغفل عنها وهو معجب بجماله إعجابه بجمال صاحبته ، فإذا هو يُسْمعنا صاحبته تقول له :

فأنتَ أبا الخطاب غيرُ مُدَافَـع عليَّ أميرٌ ما مكثْتُ مؤمَّـــرُ

فبتُّ قريرَ العين أُعطيتُ حاجتي أُقبِّل فَاهَا في الخَلاء فأُكثــرُ

فيالكَ من ليـلٍ تقاصَر طولُــه وما كانَ ليلى قبل ذلك يقْصُــر(٣)

- وتسير الأحداث سيرًا محكما إلى الذروة أو إلى العقدة : فقد تقضَّى الليل ، وتيقَّظ الحيُّ ، ونادى المنادى " ترحَّلوا " إنهما فى مأزق كيف يواجهان القوم ؟ وكيف يتَّقيان الفضيحة ؟ :

١- ديوانه :٩٦
٢- ديوانه ٩٧
٣- ديوانه ٩٧

فلما تقضّى الليلُ إلا أقلّـــه   وكادت توالي نجمهِ تتغـــوّرُ
أشارتْ بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ   هبوبٌ ولكن موعد منك عزوَرُ(١)

لقد روّعه هذا الحدث :
فما راعنى إلا منادٍ ترحّلـــوا   وقد لاحَ معروفٌ من الصُّبحِ أشقر

- إنه لم يكَدْ يعطى حاجته وقد رأى من تنبّه من أهلها :
فلما رأتْ من قد تنبّه منهـمُ   وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر ؟ (٢)

فالقصة هنا تقوم على ثلاث دعائم أساسية :
١ - العقـــدة .
٢ - الصراع الناشىء عن العقـدة .
٣ - الحل الناشىء عن الصـــراع !
(ولا تخلو قصة عادية من عقدة أو مشكلة تدفع إلى نوع معين من الصراع أو الحركة أو التصرف الذى يؤدى فى النهاية إلى الحل) (٣)

فهذه الأمور الثلاثة إنما تمثل عنصر التشويق والتطوير والترقّب واللهفة إلى النتيجة والعقدة هنا - إنما تتمثل فى تلك الأحداث المتقابلة ، وما نتج عنها من صراعٍ داخلىّ ملك على البطل مشاعره ،

١- ديوان ٩٨
٢- ديوانه ٩٩
٣- راجع فن كتابة القصة . حسين القبانى ص ٣٢

وبعث فيه القلق والتطلع إلى الحل ! بيد أن الشاعر - هنا - يسبق إلى حل مخطىء تمليه عليه الفروسية ، ويدفع إليه الغرور

فقلتُ أباديهم فإما أفوتُهم وإما ينالُ السيفُ ثأراً فيثأرُ(١)

- والمرأة - هنا - ترفض هذا الحل .. ثم لا تلبث أن تهتدى بمنطق الأنثى إلى حل آخر يتلاءم مع طبيعة المغامرة ، هو حل يقوم على المخادعة والتستر والاحتيال ! إنها تخشى أقاويل الشامتين !

فقالتْ : أتحقيقًا لما قال كاشحٌ علينا وتصديقًا لما كان يؤثَرُ !

- وتدفعها طبيعةُ الأنثى لأن تسعى - فى هدوء - إلى أختيها تلتمس حلا :

فقامتْ كئيبًا ليس فى وجْهِهَا دم من الحزنِ تُذرى عبرةً تتحدَّرُ

فقالتْ لأختيها : أعِيْنَا على فَتَىً أتى زائرًا والأمرُ للأمرِ يُقْدرُ

فأقبلَتَا فارْتاعتَا ثم قالتَا أقِلِّى عليكِ اللومَ فالخطبُ أيسَرُ (٢)

- وتهتدى إحداهما إلى الحل وهو أن يخرج متنكراً عليه ثيابها ليمشى بينهن :

فقالتْ لها الصُّغرى سأعطيه مِطْرَفي ودِرْعِى وهذا البُرْدُ إن كانَ يحذرُ

يقومُ فيمشى بيْنَنا مُتنكرًا فلا سِرُّنا يفشُو ، ولا هو يَظْهَرُ

فكان مِجنِّى دونَ من كنتُ أتَّقِى ثلاثُ شخوصٍ : كاعِبانِ ومُعْصِرُ

١- ديوانه : ٩٩

٢- ديوانه : ٩٩ - ١٠٠

فلمّا أجزْنا ساحةَ الحيِّ قُلن لي   ألم تَتَّقِ الأعداءَ والليلُ مقمِرُ ؟ (١)

- ولنظر إلى ظرف القُرشياتِ في توبيخهنَّ الشاعرَ بعد أن كُنَّ له مِجنًا :
" أهذا دأبك الدهر سادرًا ؟ .. أما تستحي أو ترعوى أو تفكر .. ألم تَتَّقِ الأعداء .. !

ثم ينصحْنه إذا عَاد ثانيةً أن يمنح طرفه إلى غير مكانهن ليضلل الرقباء !
إذا جئتَ فامنحْ طرفَ عينيكَ غيرَنا: لكي يحسبوا أن الهوىٰ حيثُ تنظرا
ألا وإن في الوصية دهاءً نِسائيا . !!

- هذه بعض مشاهد القصة التي تبدو متكاملةَ العرض فهو يرسم الزمان والمكان ويبعث الشخوص ويجلى بعض المواقف ، ويمهِّد للحوادث ..

(وأحداث القصة كلُّها حركةٌ نشيطةٌ تمضي سريعةً مرة وبطيئة أخرى تنشر في حين بعض الشخوص وتهبها عملها ، وتنشر في حين بعض الأجواء وتلونها ، والقصة ذات طابع مسرحي ففيها عناصر المسرحية ومواد بنائها من العرض والحوار ومن العقدة والحل ومن الحوادث والشخوص ومن المشاهد والمناظر ومن الحركة والحياة ..

فهو عمل قصصي وجد نوعًا من التطويل ، ونوعًا من الإغناء والتعقيد

١- ديوانه : ١٠٠

فارتفع إلى مستوى جديد لم يبلغه الشعر الغزلى) (١)

* * *

- ونمضى مع أحداث مشهد آخر تختلف أحداثه عن أحداث المشهد السابق إنه مع محبوبة أخرى تَمْتَنع عليه ولا تلين :

لَيتَ هِنْدًا أنجزتْنا ما تَعِد وشَفتْ أنفُسَنا مما تجِدْ
واستبدَّت مرةً واحدةً إنما العاجزُ مَنْ لاَ يستَبِدْ ! (٢)

- وهى كذوب لا تفى بوعد :

كلما قلتُ : متى ميعادُنا ضحكتْ هندُ وقالتْ : بعدَ غدْ !

- فالشاعر هنا لا ينطلق من أحداث مرَّ بها وإنما ينطلق من ذاته التى حرمت لذة الوصل وعاشت على وعودٍ كالسراب !

ويهتدى الشاعر إلى فكرة يغزو بها قلب الأنثى حين تسمع مزيد الثناء فاندفع يملأ سمعها بالحديث عن جمالها الخلَّاب ، فوقع فى قلبها موقع الماء العذب ، وتجاوبت معه طبيعة الأنثى التى يغرها الثناء ، فراحت فى خلوة تسأل جاراتها - وقد تعرَّت لهنَّ - أحقًا قد بلغتُ من الجمالِ ما يقولُ ؟ أم أن حبَّه هو الذى يخلق هذه المبالغات ؟

ولقد قالتْ لجاراتٍ لها وتعرَّتْ ذاتَ يومٍ تبترِدْ
أكمَا ينعتنى تُبصِرْنَنى عمركنَّ اللهَ أم لاَ يقتصِدْ ؟

١- راجع تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام . شكرى فيصل ص ٣٩٤ .
٢- ديوانه : ٣٧٠ - ٣٧١

ويكون جواب جاراتها أيضاً متفقاً مع طبيعةِ الأنثى الغَيورة ، فَمَن التى ترضى أن تقرَّ لغيرها بالتفرد فى الجمال ! ، لهذا تصدر منهن الضحكة العابثة والجواب الماكر :

فتضاحكن وقد قلْنَ لهـــا   حسنٌ فى كلِّ عينٍ مَنْ تَـــوَدْ
حَسَداً حُمِّلْنه من شأنهـــا   وقديمًا كانَ فى الناسِ الْحَسَـد

(إن مشهدَ حبيبته وقد تخففَتْ من ثيابها تبترد ومن حولها جاراتها والاهتمام به والسؤال والجواب فيه إنما هو تجميع لمعانى الجمال التى أحسَّها فيها . ولأثر هذه المعانى فى نفسه .. فهو لفتٌ فنيٌ نحو هذا الجمال .. وهذا يعنى أن الأصل فى شعر عمر هو الحادثة أو المشهد الذى يرسمه) (١) ، لهذا يظل مستغرقا فى الوصف والإغراء والرد على كيد الجارات حتى يتمكن من قلبها !

طَفْلَـةٌ باردَةُ القَيْــظِ إذا   مَعْمَعانُ الصَّيفِ أضحى يتَّقِـدْ
سُخْنَةُ المشْتَى لِحافٌ لِلْفتى   تَحْتَ ليلٍ حينَ يغْشاهُ الصَّـرَدْ

حتى إذا أنس ودَّها انطلق انطلاقاً جديداً إلى إحدى ذكرياته معها ! إنها حكايةُ لقـاء :

قلتُ من أنتِ فقالتْ أنا مـــنْ   شفَّه الوجدُ وأبلاهُ الْكَمَـــدْ
نحنُ أهلُ الخَيْفِ من أهلِ مِنىً   ما لِمقتولٍ قَتَلْناهُ قَـــوَدْ

١- راجع تطور الغزل بين الجاهليه والاسلام د / شكرى فيصل ص ٤٣٦

قلت أهـــلاً أنتمُ بُغْيَتُنَـــا   فَتَسَمَّينَ فقالتْ : أنا هِنـــدْ
إنَّما أهلُكِ جيرانٌ لنَـــا   إنَّما نحنُ وهمْ شيءٌ أحَـــدْ (١)

- وفى هذا المشهد تتكشَّفُ أسرارُ النفس ، ومكنونُ الشوق ، كما تتداخل عناصر القصة من الحكاية والحديث والوصف والحوار .. وفيه يختلف موقف عمر عن سابق موقفه ، فليس هنا الأمير المؤمَّر كما كانت تدعوه "نعم" بل نراه عاشقًا مُلِحا قد أذله الحب فخضع لصاحبته "هند" وترك لها أن تستعلى !

إذن فقيمة هذا المشهد أنه يمثل وجهًا آخر من شخصية البطل أو جانبًا جديدًا من نفسيته . كما يمثّل وجهًا آخر من العقدة أو الازمة المتمثلة فى التمنع والإباء .

***

- والمتأمل فى حكايات ابن أبى ربيعة يدرك أن حبه لم يكن لواحدة من النساء بل كان متعددًا ، فهو يهيم بامرأة يعجبه حسنُها ويستهويه جمالها. حتى إذا رأى أخرى أعجبه منها معنىً آخر طار إليها وتعلق بها !

وربما أنكر هو ذلك أحيانا ! فهو يخاطب حبيبته مدعيًا أنها الوحيدة فى قلبـــه :

لم يَجِب القلبُ شيئًا مثلَ حُبِّكمُ   ولم ترَ العينُ شيئًا بعْدَكمْ حسَنَا

---

١ - ديوانه ٣٢٢

ما إن أبالى إذا ما الله قَرَّبكم   من كان شَطَّ من الأحباب أوظَعَنا (١)

فهذه دعوى صدرت منه فى توحيد حبه ، لا يمكن أن تكون صادقةً ولا يخدعنا مثل قوله:

أرقتُ ولم أملك لهذا الهوىٰ ردًّا   وأورثَنِي حُبِّيِ وكِتْمَانُه جَهْداً (٢)

وإذا كان صادقا فى تلك الدعاوىٰ فما تفسير هيامه بـ (نعم) وتتيمه بـ (هند) وتعلقه بـ (الرباب) وحبه لسكينة وفاطمة ... ؟

وقد يُعتذر له ، فيقال : إن تعدد هذه الأسماء إنما يعنى كنايات لامرأة واحدة ، وهو رأى لا أستريح إليه ، بل أرى أن تعدد الأسماء إنما يعنى نساءً حقيقيات ، حتى وإن كنىٰ عن بعضهنَّ سِترًا لحالهن . (٣)

* * *

– والحدث عند شاعرنا مشوبٌ بالمرح والابتسامة ، والدَّلال والوداعة فهو لم يعرف الصدود ، ولم يتجرع الهجر ، ولم يتَّرع النوى .. أما ما

١– ديوانه : ٣٠٦

٢– ديوانه : ٣٢٤

٣– ومن هذا المنطلق : اتهم د . زكى مبارك عمر فى حبه ، ورأى أنه لم يحب بقلبه، وإنما بعقله ولسانه ، ودلل على ذلك بتعدد محبوباته ، وبأن عمر كان حضاريا ، وقلّما يصدق للحضرى حب (راجع حب ابن ربيعة ص ٤١ – ٤٢) وهذا الرأى من الدكتور "مبارك" يحتاج إلى مراجعة ، فهو يعنى أمرين : الأول أن حب عمر كان جسديا شهوانيا – مادام لم يعرف طريقاً للقلب . والآخر : أن الحب الحضرى مُتهم فيه ! وهذان الأمران لا أطمئن إليهما ، فلعمر حب صادق وغير صادق ، كما أن صدق الحب لا يرتبط ببداوة أو حضر وإذا كان قد أحب غير واحدة فلا يعنى هذا أنه كان غير صادق فى جميع حالاته.

نراه من التألم والحنين ، والشكوى والأنين ، فإنما يعنى هجرَ محبوبٍ حالتْ دونه الرقباء أو فراق حسناء لاحتْ له فى الطواف دون أن تحقق له رغبته فى لقاء حينئذ يشكو ويتحسر بل ويتمنى لو لم يكن له حج هذا العـــام :

فليتَ مِنىً لم تَجمعِ العامَ بيْنَنا ولم يكُ لى حجٌ ولم نَتَكلَّـــم (١)

وانظر إليه وهو يخدع تلك المرأة بمعسول كلامه :

فإن نأيتُمْ أصابَ القلبَ نأْيكمُ وإن دنتْ داركُم كُنْتُم لنَا سَـكَنا (٢)

إنه فى حاجة ماسة إلى هذا الخداع ليجارى به عدد النساء اللاتى يقعن فى شِراكه ، وله فى ذلك وسائل كثيرة ، دفعت فى أحداث قصته منهـــا :

١ - الإبداع فى الوصف : فقد رأى أن خير وسيلة يصل بها إلى قلوبهن هى أن يصف محاسنهن ، ويمدحهن - والغوانى يغرهنَّ الثناء - وكانت بعض النساء يرغبن فى أن يُذْكرنَ فى شعره ، بل كُنَّ يفاخرن بوصفه أو بذكره لهن ، وقد مرت قصته مع إحدى صاحباته التى تعرَّت ذات يوم أمام جاراتها تبترد ، وهى تسأل :

أكَما ينْعَتُنى تُبصِرْنَنَـــــــى عمركنَّ اللهَ أمْ لا يقْتَصِـــــدْ ؟
فَتضَاحَـــكْنَ وقد قُلنَ لهَـــــا حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ مَنْ تَـــوَد !

١- ديوانه :٢٠١

٢- ديوانه :٣٠٦

- إن المرأة كم تتمنى أن توصف هكذا ، وكم كانت تُحسد صاحبتُه عليه !
حَسَداً حُمِّلنه من شَـــأْنها ∴ وقديمًا كان في الناس الْحَسَــد (١)

حقًا : إن حديثَ الحبِّ هو ألذُّ حديثٍ تُحبُّ النساءُ سماعَه ، لهذا كان شعرُ عمرَ أفضلَ شعر عندهنَّ ، وكم تشوقن لسماعه :

قالتْ : لو أن أبا الخطابِ وافقنا فنلهو اليوم أو ننشد أشعارا (٢)

٢ - **لطافة المخاطبة** : فكان يتودد إليهن بشيء من حديث الصبابة ، أو بقسط من الإعجاب والاستعطاف ، وتلك ظاهرة بارزة في شعره : فهو يخدع واحدة بقوله :

أنــتِ الْمُنَى وحديثُ النفسِ خاليةً
وفي الجميعِ أنتِ السمعُ والبَصَرُ (٣)

ثم يلاطف أخرى بقوله :

أنتِ كنتِ المنى ورؤيتك الخلْــ ــد فقرِّي عينًا به واطْمَئنِّي (٤)

٣ - وقد يلجأ إلى **الخديعة الكبرى** التي تمسُّ عفَافَ المرأة وكرامتها، فيصف أوقات التلاقي ، وساعات التداني ، وهو في ذلك يتهتك تهتكاً لم يسبقه إليه إلا امرؤ القيس، ولننظر إليه وهو يتغنى

١- ديوانه : ٣٢١
٢- ديوانه : ١٢١
٣- ديوانه : ١١٢
٤- ديوانه : ٢٧٧

بهذا الحدث الجرىء :

يا ليلةً قطَعَ الصباحُ نعيمَها   عُودِى عَلَىَّ فقد أصَبتِ صَمِيمِى ! (١)

***

٤ - وقد يتخذ من التدين زريعةً للوصول إلى قلبها ، فكثيرا ما اتخذ من المواسم الدينية والطواف حول الكعبة وسيلة لذلك :

يقصُدُ الناسُ الطوافَ احتساباً   وذنوبى مجموعةٌ فى الطّوافِ ! (٢)

وكثيرا ما يتخذ من الألفاظ الدينية ، كذكر الرسول ﷺ والنور والإسلام مدخلا لقلب صاحبته :

لا والذى بعث النبىَّ محمـــــداً   بالنور والإسلام دين القيـــــم

وبما أهلَّ به الحجيجُ وكبَّــروا   عند المقام وركن بيتِ المحْـرم

والمسجدِ الأقصى المبارك حولـه   والطور حَلْفةَ صَادقٍ لم يأثــمَ

ما خنتُ عهدكِ ياعُثَيم ولا هَفَا   قلبى إلى وصلٍ لغيركِ فاعلمى (٣)

- هكذا كان يلاحق النساء ، هذه يتبعها إلى المطاف أثناء الحجيج ليشهِّر بها ، وتلك ينتظرها فى الطريق آتية أو ذاهبة ، وثالثة يجلس وإياها فى ضوء القمر ، يتجاذبان أطراف الحديث ، ورابعة يتسلل إليها خوفا من الوشاة .. وغير ذلك مما أودعه فى شعره من أحداثٍ تلاحقت

١- ديوانه : ٢٤٣

٢- عيون الأخبار لابن قتيبة م ٤ جـ ١٠ / ١٠٧

٣- ديوانه : ٢٣٠

بهـا قصتـــه ! (١)

<u>أنماط الحدث</u> : يرتبط الحدث عند ابن أبى ربيعة بالحبّ ارتباطا وثيقا - كما سبق - وبالتأمل فى شعره نجد أنواعا ثلاثة من الحب ، تمثل أنماطا ثلاثة من الحدث : -

<u>الأول</u> : الحدث القلبى (الحب القلبى) وهو الذى لا يخضع لإقتناع عقلى أو ترتيب طبيعى من نحو أسباب ومسببات ! وهو يشير إلى قصة أول فتاة علقت بقلبه منذ الصغر فيقول :

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوىٰ   فصادفَ قلبًا فارغًا فتمكنا (٢)

إنها محبوبته "الثّريا" التى أحبها حبا شديدا لا يعْدله حب ، حتى عرفت "الثّريا" فى كتب الادب حين تذكر بصاحبة عمر . وقد كانا يلتقيان فى المواسم وغيرها (٣)

---

١ - ومن طريف ما حكاه الأصبهانى : أن امرأة قدمت من مكة وكانت من أجمل النساء فبينما عمر يطوف إذ نظر إليها فوقعت فى قلبه فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه ، فلما كان فى الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها ، فقالت له : إليك عنى ياهذا فإنك فى حرم الله وفى أيام عظيمةِ الحرمة فألحَّ عليها يكلمها حتى خافت أن يشهّرها فلما كان فى الليلة الأخرى أقبلت ومعها أخوها فلما رآه عمر معها عدَل عنها فتمثلت المرأة بقول النابغة - وقيل بقول جرير - :

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ له   وَتتّقى صولةَ المستأسـدِ الْحَامِى

وروى : المستأسد الضّارى (راجع الأغانى جـ١ / ٧٨ - ٧٩)

٢- عيون الأخبار م٣ جـ٧ / ٩ والأغانى جـ١ / ٢٢٢

٣- ومن طريف ما نقله الرواة أن ابن أبى عتيق سمع عرضاً وهو بالمدينة قول عمر :

مَنْ رسولى إلى الثريــا فإنى   ضقت ذرعـا بهجـرها والكتــاب

فقال : « إن عمر لم يعنِ أحداً سواي فركب من فوره فذهب إلى عمر فأخذه دون أن =

فاندفع فى شعره يقص لذة اللُّقيا والوصال حتى شاع شعره وانكر عليه أهلها ذكرها والتشهير بها فأخذوا يحولون بينهما ، ثم شكوه إلى أهله، فنصحه أخوه الحارث أن يمتنع عن لقياها ، وأعطاه ألف دينار على أن لا يقول فيها شعرا ، فاضطر عمر إلى اللحاق بأخواله فى اليمن - بلحج وأبْيَن - مخافة أن يهيجه مقامه بمكة وما كاد يستقر هناك حتى عاودته ذكرى " الثريا " ومواسم الحج واللهو فى الحجاز فعاد يصيح :

هيهاتَ من أمةِ الوهّابِ منزلُنـــا إذا حللنا بسيف البحر من عـدنِ
واحتلَّ أهلك أجياداً فليس لنـــا إلا التذكر أو حظ من الحـــزنِ
بل ما نسيتُ ببطن الخيفِ موقفَها وموقفِى وكلانا ثم ذو شـــجنِ
وقولها "للثريا" يوم ذى خشـب والدمع منها على الخدين ذو سننِ(١)

وهذا النوع من الحدث (الحب) العالق بالقلب أراه قليلا !

<u>الثانى</u> : الحدث التأملى (الحب العقلى) وهو ما تدور أحداثه مرتبة ترتيبا عقليا يخضع فيه صاحبه للأسباب والمسببات ، حيث يبدأ فكرة تؤرّقه فيقتنع بتجسيدها وتمثيلها واقعًا ملموسا :

= يستريح - بمكة - وذهب به إلى الثريا وكانت بمصيفها بالطائف فحملها على الرضى عنه والرجوع إلى حياتها السالفة معه ، فوعدته بزيارته ثم جاءته فى موعدها ، وصادف أن أرسله أخوه - الحارث - فى مهمة ونام على فراشه وغطّى وجهه بثوب عمر فلم يشعر إلا بالثريا قد ألقتْ نفسها عليه تقبله فانتبه وجعل يقول : أغربى عنى فلست بالفاسق أخزاكما الله ، فانصرفت جازعة ورجع عمر ، فأخبره الحارث بخبرها ، فاغتم .. وعاتبه على زجرها .
(راجع الأغانى جـ١ / ٢٣٢ وعصر القرآن - مهدى البصير / ١٣٧)

١- ديوانه : ٢٨٣

فقلتُ قولاً مصيبًا غيرَ ذِى خَطَلٍ   أتىٰ به حُبُّها فى فِطنةِ الفِكَرِ (١)

الثالث : الحدث السريع / وهو الحب الذى يجلبه البصر ويتّابع به النظر ويمثل هذا الحب (الحدث السريع) فى قصته كما يمثل أكثر أنواع الحب وأسماها درجة في قصة ابن أبي ربيعة ، وهو يعترف بذلك :

إنى امرؤٌ مولعٌ بالحُسْنِ أتبعُهُ   لا حظَّ لى فيه إلا لذةُ النظـر (٢)

كما يقول :

دَلَّ الفؤادَ عليها بعضُ نسْوتها   ونظرةٌ عرضتْ كانتْ من القَـدَر (٣)

- وهذا النوع من الحب : لا أراه حبًّا بالمعنى الدقيق ، بل أراه ضَرْبا من الشهوة العابرة وهذا ما ذهب إليه بعض الباحثين (٤)

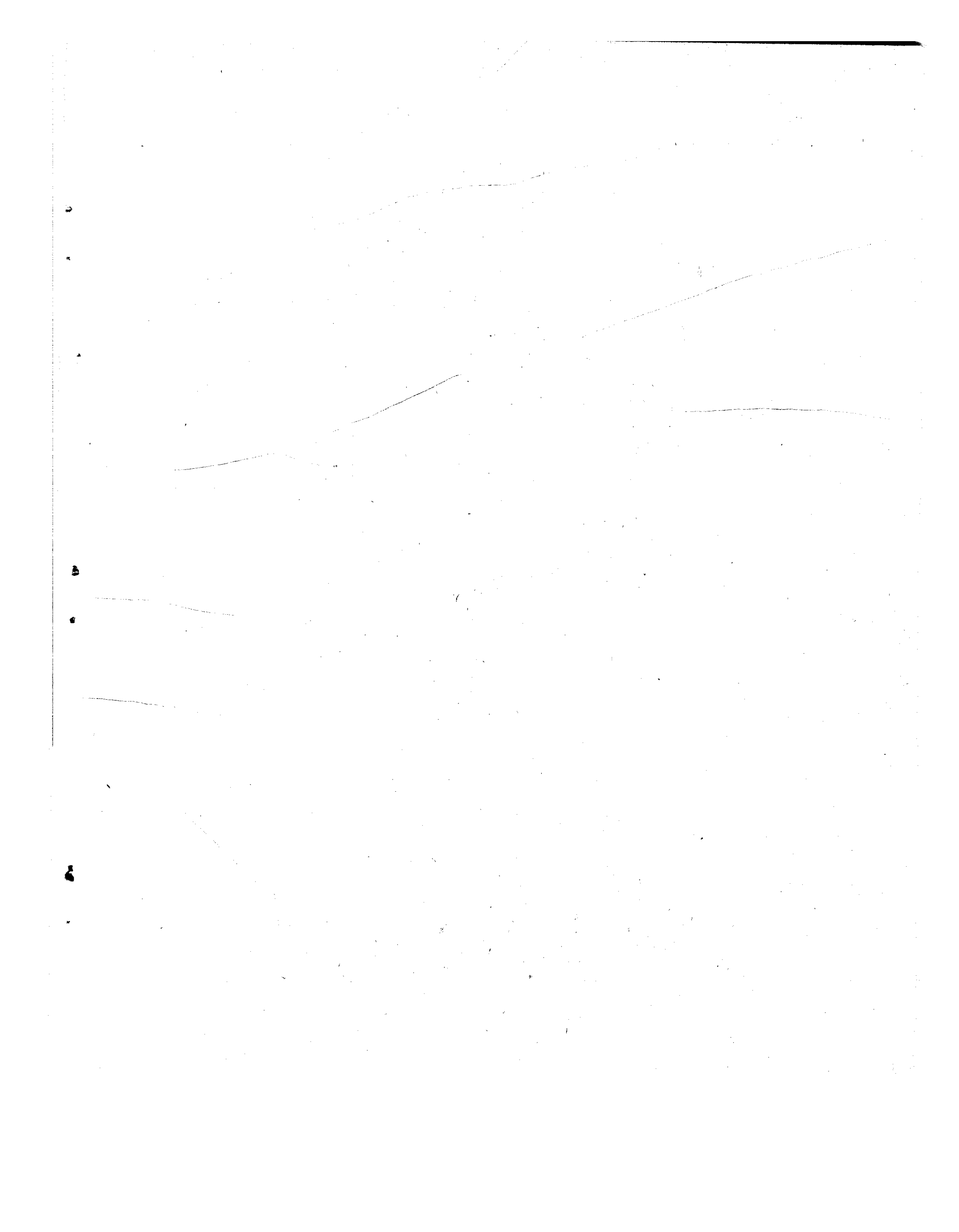
- وعلى كل حال فأنا أعتقد أنه ليس كل ما ذكره عمر من أحداث كانت كذلك فى حياته .. فقد تكون له أصوله أو بذوره ، .. ثم يأتى الخيال بما هو أمتع من الواقع ، وتلك مهمة الفنان المبدع !

١- ديوانه : ١١٧

٢- ديوانه : ٤٩٣

٣- ديوانه : ١١٧

٤- كابن حزم فى كتابه طوق الحمامة حيث ربط بين الحب والزمان ، وبين العاطفة والاستقرار النفسى فى قوله : « وإنى لا أطيل العجب من كل من يدّعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة ، وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل » الطوق ص / ٣٠ .
وابن حزم بهذه العقلية السيكلوجية الممتازة يتفق مع ابن داود فى كتابه الزهره / ٦٢ الذى أشار إلى هذا حين وضع للحب مراحل إذا قطعها المحب واحدة بعد واحدة كان الحب على التمام فى المسافاة وإلا كان انقضاؤه قريبا كما كان ارتقاؤه فيها سريعا .
- وهذا أمر طبعى منطقى فما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا.



الفصل الثاني

أشخاص القصة

- البطل .
- الحبيبة .
- الأتراب .
- الرسل والرسائل .
- العاذلون .
- الرقباء .
- الحساد والوشاة .

يمكن أن نقسم أشخاص القصة إلى ثلاثة أنواع :

١ - نوع يمثل جانب الخير ، ويتمثل فى : الحبيب (البطل) - الحبيبة - الأتراب .

٢ - نوع يمثل جانب الشر ، - وقد طبع عليه - ويتمثل فى : الرقباء - الحساد - الكاشحين .

٣ - نوع توافر فيه جانبا الخير والشر ، ويتمثل فى : الرسل - العذال .

- فهذه الأشخاص المتباينة يمكن أن تهيّئ نسيجًا تبتدئ منها القصة ثم تحرك الأحداث وتطورها إلى أن تشتبك وتتأزم ثم تتدرج إلى الانفراج والحل وهو المراد بالحبْكة الفنية والصراع الدرامىّ . والصراع هنا يظل بين جانبى الخير والشر إلى أن ينتصر جانب الخير على كثرة الرقباء ، ونعنى بالانتصار هنا : أن يصل ابن أبى ربيعة إلى غايته سالما دون أن يُمسّ بسوء !.

١ - البطـــل

هل يكون القاصُ بطلَ قِصَّته ؟ !

الحق أنه لا يعدو إحدى اثنين : إما أن يكون هو البطل فى حقيقة الأمر كل البطل أو بعضه ، وإما أن يكون هو البطل المستتر وراء قصته حين يتصيد موضوعها مما رآه أو ترامى إلى أذنيه فراح يجسده بخياله !

- وعلى كل حال ليس فى مستطاع القاص الفنان أن يباعد بين نفسه وقصته مدعيا وقوفه على الحافة يُنشىء المشاهدَ ويحرك الأبطال ، بل غالبا ما تحمل القصة ميولَ القاص ، ومشتهياته ، وما يُخفيه من بواعث أو ما يتمناه من أحاسيس .

- ومن هذا المنطلق فشخصية البطل فى قصة شاعرنا هى عين (القاص) وذاتُ الشاعر ، ومدار القصة : فعمر هو الذى يدير الأحداث ويوجه الأشخاص .

* * *

وقد استطاع ابن أبى ربيعة رسم شخصياته وتحديد أبعادها فى لمسات خفيفة سريعة أثناء السرد والحوار والصياغة الفنية .

(وكلمة " أبعاد الشخصية " اصطلاح متفق عليه من النقاد ، ومنقول عن كلمة أجنبية ويقصد به الجوانب الثلاثة التى تتكون منها الشخصية بصفة عامة وهذه الأبعاد أو الجوانب الثلاثة هى :

١ - الجانب الخارجىّ : ويشمل المظهر العام والسلوك الظاهرى للشخصية .

٢ - الجانب الداخلىّ : ويشملُ الأحوال النفسية والفكرية والسلوك الناتج عنهما .

٣ - الجانب الاجتماعىّ : ويشمل المركز الاجتماعى الذى تشغله الشخصية وظروفها الاجتماعية بوجه عام) (١)

- وهذه الجوانب الثلاثة مترابطةٌ عند شاعرنا لا يمكن الفصل بينها لكن يمكن أن نرها بوضوح خلال عرض مواقفه : فالبطل - هنا - يبدو جميل المظهر تبدو عليه مظاهر النعمة والثراء ، يرتدى زىَّ الحَضَر ، وهو فارس مغامر كما يبدو عليه القلق والشَّغَف ، وحَيْرة المحب وقد آلمه

١- راجع فن كتابة القصة . حسين قبانى ص ٧٠

النوى ، فلم يركن إلى هدوء ! وكيف يهدأ وهو لا ينسى المحبوب ، ولا يستطيع الوصول إليه :

ياليتَ مَنْ لامَنا فى الحبِّ مرَّ به   مما نُلاقى وان لم نُحْصِهِ العُشْرُ (١)

وكيف يهدأ وقد ألحّ به الوجد ، ومزّقه الشوق :

أهيمُ إلى نُعمٍ فلا الشَّملُ جامعٌ   ولا الحبلُ موصولٌ ولا القلبُ مُقْصِرُ
ولا قربُ نعمٍ إن دنتْ لك نافعٌ   ولا نأْيُها يُسْلى ولا أنتَ تَصْبِرُ (٢)

- لهذا يدفعه القلق والشوق إلى ركوبِ الأهوال وملاقاة الأخطار متحدّيًا الحواجز للوصول إلى الحبيبة :

رأتْ رجلاً أما إذا الشَّمسُ عارضتْ   فيُضْحى وأما بالعشىِّ فيَخْصَرُ (٣)
أخَا سفرٍ جَوَّاب أرضٍ تقاذفتْ   به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبرُ

كما يدفعه الشوق إلى المغامرات ليلاً :

وليلةَ ذى دَوْرانَ جشّمنى السُّرى   وقد يَجْشُمُ الهولَ المحبُّ المغرَّرُ (٤)

- وهو لا يَفْتأُ يركبُ الأهوال ، ليلَ نَهار ، لا تأخذ منه المتاعب ، ولا تُثنيه عن عزيمتِهِ المصاعب ، وها هى ذى حبيبتِهِ تُشفق عليه وتدعو له

١- ديوانه : ١١٣
٢- ديوانه ص ٩٢
٣- ديوانه ص ٩٤
٤- ديوانه ص ٩٥

بالسلامة من الأعداء : (١)

أريتكَ إذ هُنّا عليكَ ألم تخَفْ وُقيتَ وحَوْلي من عدوِّكَ حضّرُ !

وتستمر الأحداث لتصل إلى ((الأزمة)) :

- والطريف هنا : أن بطل القصة يعجز عن حل هذه الأزمة " العقدة " ولا تسعفه الذاكرة لإيجاد مخرج : !

فلما رأتْ مَنْ قد تنبَّه منهـمُ وأيقاظَهم قالتْ : أشِرْ كيفَ تأمُرُ

ويدفعه الاستعلاء والخيلاء إلى ادّعاء الفروسية الخاطئة لمنازلتهم بالسيف ولكن المرأة كانت أبعدَ منه نظرا وأحصفَ منه رأيا فقامت هي - بطبيعة الانثى - تنشد حلاً يسترُها ، وراحتْ تستعين بأختيها :

لعلّهما أن تطلبا لك مخرجـا وأن تَرحُبا سربًا بما كنتُ أحصر

وتهتدى إحدى أختيها إلى الحل وهو : أن يخرجَ البطلُ متنكراً بين اثنتين في زيِّ امرأة

يقومُ فيمشي بيْنَنا متنكـــرًا فلا سرُّنا يفشُو ولا هو يظْهَـــرُ (٢)

فكان مجنِّى دونَ من كنتُ أتَّقى ثلاثُ شُخوصٍ كاعبانِ ومُعْصِر (٣)

***

- ونلاحظ في قصة عمر أن بطل القصة اتخذ من التنكر في زيِّ الآخرين

١- ديوانه ص ٩٦

٢- هكذا ورد لفظ ثلاث بالتذكير لأن لفظة شخص يراد بها الرجل والمرأة ، والمراد بها هنا المرأة

٣- ديوانه / ١٠٠

وسيلة لإزماته ! تارة فى زى امرأة ! ، وأخرى فى زى أعرابى ملتثم عابـــر طريـــق :

فقال اكتفل ثم التثم فأت باغيــا   فسلم ولا تكثر بأن تتورعـــــا
فإنى سأخفى العين عنك فلا ترى   مخافة أن يفشو الحديث فيسمعا (١)

- واللافت للنظر حقا : أن بطل القصة - رغم ما هو فيه من أزمة وعجز عن المخرج - لا يترك الفرصة ، ولا يعبأ بأزمة إنه يحدد معها مكانا آخر للقـــاء :

أشارت بأن الحى قد حان منهم   هبوب "ولكن موعد منك عزور" (٢)

والبطل - كما هو واضح - لم يكن شجاعا يقابل الأعداء كما قابلهم امرؤ القيس ! ولم يجرد حسامه كما فعل عنتره وإنما كان ينساب إلى الحبيبة انسيابا وقد نام الناس وغفل الرقباء :

وغاب قمير كنت أهوى غيوبـــه   وروح رعيان ونوم سمــــــر
وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ حباب وشخصى خشية الحى أزور(٣)

أين شجاعته إذن ؟ ولماذا يخاف المنادى ؟ ولم يدخل الخوف إلى قلبه ؟ !

فما راعنى إلا مناد ترحلـوا   وقد لاح معروف من الصبح أشقر !

---

١ - ديوانه : ١٧٨
٢- عزور : اسم مكان
٣- ديوانه : ٩٦

- وما باله يستتر بين الكواعب الحِسان ! أو يتنكر فى زىّ أعرابى مجهول !

- ونلاحظ كثيراً من الأبعاد النفسية والذهنية لشخصية عمر : فهى - غالباً - ما تكون محورَ القصة ، حين تُنشىء الحديثَ ، وتدير الأحداثَ وهى شخصيةٌ مستعلية تطفو فوق هذا وذاك ، فعمرُ هو الأمير المؤمر :

فأنتَ أبا الخطابِ غيرُ مدافَعٍ   علىَّ أميرٌ ما مكثتَ مؤمَّـــرُ (١)

وهو الفتىٰ الذى تجلو صورته الغانيات وتسأل عن لونه الذى غيّره سُرى الليـل والتهجـر :

رِقِى فانظرى أسماءَ هلْ تَعْرِفينَــه   أهذا المغيرىّ الذى كانَ يُذكـرُ
فقالتْ : نعم لا شـكَّ غَيَّر لونَــه   سُرى الليل يُحيى نصَّه والتهجُّـرُ
رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ   فَيَضْحَىٰ وأما بالعشىِّ فيخْصَـرُ
أخَا سفـرٍ جـوَّابَ أرضٍ تقاذفتْ   به فلواتُ ، فهو أشعثُ أغبَرُ(٢)

فطغيان هذه الشخصية ورغبتها فى الظهور هو أبرز معالمها ، وهى شخصية تصطنع القوة والرجولة ، فإن صاحبها ألِف الضرب فى الأرض ، تتقاذفه الفلوات فهو أشعث أغبر ، ثم هى شخصية مترفه فصاحبها تنال منه الأسفار فهو عقيب السفر أشعث أغبر - قليل على ظهر مطيته ، يخشىٰ على ردائه المحبَّر :

١- ديوانه : ٩٧
٢- ديوانه : ٩٤

قَليلٌ على ظَهْرِ المطيةِ ظِلُّه   سوى ما نفى عنه الرداءُ المحبَّرُ

(وهى شخصية هامة ينظر إليها الناس من وجهتين مختلفتين : ترمقها النساء ويرقبها الرقباء ، بينما هى تعيش بين الطموح والحذر أو بين اللذة والخوف من عاقبة الطمع) (١)

إذن فقليل ما يكون هو العاشق الملح الذى أذله الحب فخضع لصاحبته وترك لها أن تستعلى على غرار ما صنعت به هنـــد :

كلما قلتُ : متى ميعادنُـــا   ضحكتْ هندُ وقالتْ : بَعْدَ غد !

❋ ❋ ❋

والبطل مرح لعوب انعكس جماله على نفسيته فشبَّبَ بها ! إذن : لا عجب إذا رأيناه فى القصة هو المعشوق ، والمالك لقلوب عشيقاته ! وهو المتبوع الذى تطلبه المرأة ، وتقع أسيرة تحت رحمة حبه :

ما وافقَ النفسَ من شىءٍ تُسَرُّ بهِ   وأعجبَ العينَ إلا فوقَه عُمرُ (٢)

وهو يحكى هذا المشهد العجيب على لسان محبوباته :

قالتْ لها أختها تعاتبهـــا   لتفسدن الطواف فى عمـــر (٣)

قومى تَصدَّى له لِيُبْصِرنَـــا   ثم اغْمزِيهِ يا أختِ فى خَفَـــر

١- راجع د . شكرى فيصل ص ٤٠٢

٢- ديوانه : ١١٩

٣- هناك رواية (لا تفسدنْ) على النهى والصحيح لتفسدنْ على القسم كأنها قالت والله لتفسدن (الكامل للمبرد جـ١ / ٣٣٣) ط بيروت

قالتْ لها قد غَمَزْته فأبىٰ　　　ثم اسْبَطرّتْ تشْتدُ فى أثـرى (١)

وقد تعجب لهذا بعض معاصريه بقوله : " أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك أهكذا يقال للمرأة إنما توصف بالخَفَر وأنها مطلوبة ممتنعة "(٢) ولعلنا - بعد ذلك - نلتمس له عذرا نفسياً إذا علمنا تنشئته وما فيها من ترف . (٣) ويرجّحُ هذا ما ذهب إليه د . شوقى ضيف إذ رأى أن المسألة : " لم تكن مسألة جمال عمر فحسب وإنما كانت مسألة ذوق مترف أفسد الشعور الطبيعى عند عمر فجعله يشعر بجماله أمام المرأة أو بشخصيته فإذا هو يجعل نفسه شغل الفتيات الشاغل .. حتى تسأل كبراهن عنه فتجيب الوسطى هذا عمر "

قالتْ الكبرىٰ أتعرفْنَ الفـتىٰ　　　قالت الوسطىٰ نعمْ هذا عُمَـرْ

وأما الصغرى فقد تيّمها ونفذ حبه إلى قلبها فأجابت :

قالت الصغرى وقد تيّمتهـــا　　　قد عرفناه وهل يخْفىٰ القمرْ ؟

كأنها تلوم أختها على التساؤل ، فهو الفتى الذى شغل فتيات مكة (٤) وعلى كل حال هو إخراج جديد - فى قصته الشعرية - عُرف به وغالى

١- الكامل للمبرد جـ ١ / ٣٣٣

٢- الكامل للمبرد جـ ١ / ٣٣٣

٣- يرى علماء النفس أن هؤلاء الذين يلتفتون إلى ذواتهم أو يعشقونها ويزعمون أنهم مطلوبون فى الحب يُعشقون قبل أن يعشقوا .. متأثرون بعامل نفسى سموه العقدة النرجسية أو النرسيسة ، فلعل عمر كان من هؤلاء المصابين بهذه العقدة النفسية التى طبعت شعره بشكل ذاتى　(راجع د . جبور / ٤٣٠)

٤- الشعر والغناء فى المدينة ومكة د . شوقى ضيف ص ٢٦٢

فى ترداد مشاهده !

***

- وهناك فى اليمن يعلم عمر بزواج أول فتاة عرفها قلبه !
إنها " الثريا " التى تزوجت من سهيل (١) وقد خرجت معه إلى الشام ، وهناك يصيح موريا (٢) بتباعد هذين الكوكبين :

أيُّها المنكح الثريا سُهيــلاً   عمرك اللهَ كيفَ يلتقيــانِ
هى شامية إذا ما اسـتقلّتْ   وسهيلُ إذا استقلّ يَمَــانى (٣)

- ويعتريه الضعف - بهذا الخبر - ويشعر بالفشل ويمتلىء قلبه حسرة فيهرب من واقعه الذى يعيش فيه إلى الماضى يستوقف الديار ، ويسائل الآثار ، وينعي أياماً قضاها معهــا :

ياخليلىّ سائِلا الأطـــلالا   بالبليّينِ إن أحزْنَ سُــؤالاَ (٤)

- ثم يخاطبها :

أنتِ كنتِ الهوى وروئيتُكِ الْخُلْــدَ وكنتِ الحديثَ والأشْغَالاَ (٥)

- ويتذكر تمنيهَا لو أنه تزوّج منها :

١- هو سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى - رضى الله عنه - (راجع الأغانى جـ ١ / ١٢٢

٢- هى من أجمل التوريات فى الشعر العربى : فقد كان من غريب الصدف أن يكون اسم زوجها : اسم نجم هو " سهيل " وأن يكون اسمها : اسم كوكبة من النجوم هى الثريا ، وأن يكون الكوكبان فى الأفق متباعدين لا يلتقيان ، فسهيل فى الأفق الجنوبى والثريا فى الأفق الشمالى

٣- ديوانه : ٥٠٣ والأغانى جـ ١ / ٢٣٤

٤- ديوانه : ٣٦٢

٥- ديوانه : ٣٦٣

إذ تمنيتِ أنني لكِ بَعْـــلٌ   قلتُ : بل ليتني بخدِّكِ خَالَا ! (١)

- هكذا يهرب البطل إلى ماضيه ، ويصطبغ حبه بالصبغة الماضية ، ويتكرر - في القصة - وقوفه على الأطلال يسائلها وقد استبدَّ به الحنين :

قف بالدّيار عفا من أهلها الأثر   عفى معالَمها الأرواحُ والمطــرُ
وقفتُ فيها طويلاً كي أسائلهـا   والدار ليس لها علمٌ ولا خبــرُ
دار التي قادني حيْنٌ لرؤيتهـا   وقد يقودُ الى الحيْنِ الفتىَ القَدَرُ
منازل الحيّ أقوتْ بعد ساكنهـا   أمست ترودُ بها الغزلانُ والبقــرُ
تبدّلوا بعدها داراً وغيّرَهَـــا   صرف الزمانِ وفي تكراره غِيرُ (٢)

- بيد أنه لم يجد في الماضي ما يردُّ عليه لهفته .. لقد تغير كلُّ شيء .. إنه الزمان الذي لا يعود ، والقدر الذي يتحكم في مصير البشر :

ما أنا والحبُّ قـد أبلَغَني   كان هذا بِقضاءٍ وقَــدَرْ (٣)

ويراجع البطل نفسه أحياناً فيقف معها وقفاتٍ تأمليّه ، تدفعه مكابدةُ الشوق ، ومعاناة الصبابة :

يا قلبُ اخبرني وفي النأْيِ راحةٌ   إذا ما نَوتْ هندٌ نَوىً كيفَ تصنعُ
أتجمعُ يأسًـا أم تحنُّ صَبابَـةً   على إِثر هِنْدٍ حين بَانتْ وتجْزعُ

١- ديوانه ٣٦٤
٢- ديوانه :١١١
٣- ديوانه :١٤٨

وللصبرِ خَيْرٌ حينَ بَانتْ بُوِدِّها　　وزجْرُ فؤادٍ كانَ للْبينِ يخْشَعُ (١)

ـ ولا تطول وقفاته مع نفسه ، إنه لا يصبر على مكابدة الشوق ، لهذا يُسرع إلى الحبيبة يحاكيها :

أقول لأسماءَ اشتكاءً ولا أرى　　على إثر شيءٍ قد تَفَاوتَ مجْزَعا
ألم تعلمي يا أسْمُ أني مُغَاضِبٌ　　أحبَّ جميعَ الناسِ لو جُمِّعُوا مَعا (٢)

ـ وقد تخرج أسراره إلى الناس عامة ، دونما قصد فيصرخ بأعلىٰ صوته :

أصبح القلب للقتول صريعـا　　مستهاماً بذكرها مَزْدُوعـا
سلبتني عقلي غداةَ تبـدَّتْ　　بين خَوْدَين كالغزالَيْن ريعا (٣)

وقد يبكي البطل بكاءً حارا ، حينما تعصف به الذكريات وهو يحكي لصاحبيه :

ياصاحبيَّ قِفَا نسْتَخْبِر الدَّارا　　أَقْوتْ فهاجتْ لنا بالنَّعفِ أذكارا
تبدَّل الربعُ مِمن كان يسْكُنُه　　أُدْمَ الظِّباءِ به يمشينَ أسْطَارا (٤)

ـ وهكذا تتحدد ملامحُ الشخصية الأولى شخصية البطل .

***

١ ـ ديوانه :١٨٥
٢ـ ديوانه :١٨٣
٣ـ ديوانه :١٩١
٤ـ ديوانه :١٧٠

٢ - الحبيبة

أما الحبيبة فهى الشخصية الأساسية التى دارت من أجلها أحداث قصته . وتبدو هيئة الحبيبة محوطة بملأ من النساء - جارات أو أتراب أو أخوات - يأتمرون معها وقلّما يلقاها عمر وحدها فى قصته ! وبطل القصة راح يطلب واحدة فتبعته طائفة من النساء ! شاركنه حبه ومنحنه عواطفهن .

- وبطل القصة لا يتعلق إلا بمن عُرفت بالجمال ، كما لا يتعلق إلا بالمرأة الحرة الشريفة عريقة الحسب والنسب وقد جمعت بين جمال الجسم والعقل والادب :

حُـرةٌ من نسـاءِ عبْدِ منَـافٍ　　　جمعتْ منْطِقاً وعقْـلاً وجِسْمَـا (١)

- وهى بيضاء آنسة مِفْتَانة ، ريا الخلق ، طَفْلة تُصبى العاقلَ فيفقد صوابه :

بيضةٍ كمهاةِ الرَّمْلِ آنسـةٍ　　　مِفْتانةِ الدَّلِ ريَّا الْخلْقِ كالْقَمرِ (٢)

وعبدةُ بيضاءُ المحاجرِ طَفْلَـةٌ　　　مُنعَّمةٌ تُصبى الْحليمَ ولا تَصْبُو (٣)

- وفتاته تحب العطر وهو يعرفها برائحتها :

فدلَّ عليها القلبَ ريَّا عرفتُها　　　لها وهوىُ النفسِ الذى كادَ يظْهرُ (٤)

- إنها معطرة بالمسك :

١- ديوانه : ٢٣٨
٢- ديوانه : ١١٦
٣- ديوانه : ٤٣٦
٤- ديوانه : ٩٦

يمج ذكيّ المسكِ منها مُقبَّل   نقيُّ الثَّنَايا ذو غُروبٍ مُؤشَّر (١)

- وتبدو الحبيبة - من بين اثنتين - جميلة المظهر تبدو عليها مظاهر الثراء، ترتدى كساءًا أخضرا :

فقامت إليها حُرَّتان عليهما   كساآنِ من خَزٍ دِمقْسٌ وأخْضَرُ (٢)

- ومحبوبته بارعة الجمال ، فمن صفاتها : أنها : خود ، رفيعة الخصر - خدّها أسيل - عيناها عينا ظبية ، هيفاء ، لفّاء ، مصقول عوارضها :

خود تُضِيء ظلامَ البيتِ صورتُها   كما يُضِيء ظلامَ الحِندس القمرُ
مجْدولة الخَلْق لم توضع مناكبها   ملء العناقِ ألوف جَيْبُها عَطِر
ممكورةَ السَّاق مقصوم خلاخلهـا   فمشبع نشب منها ومنكسِـرُ
هَيْفَاءُ لفَّاءُ مصْقولٌ عوارضهـا   تكاد من ثِقل الأردافِ تَنْبَتِرُ
تَنْكَلُّ عن واضحِ الأنيابِ متّسـق   عذب المقَّبلِ مَصْقولٍ له أشَرُ (٣)

- وبعد أن يعرض لجمال محبوبته ، تَتَقَدّم هى لترحبَ بهذا الحبيب المتيم على مرأىً ومسمع :

قُلْنَ انزلُوا نَعِمَتْ دارٌ بقربِكمُ   أهلاً وسهلاً بكمْ من زائرٍ زارَا (٤)

- بل كانت الثريا لا تتحرج أمام رفيقاتها فى البوح بحبها لعمر وحب

١- ديوانه : ٩٨
٢- ديوانه : ٩٩
٣- ديوانه : ١١١ - ١١٢
٤- ديوانه : ١٢٦

عمر لها ، وكانت إذا عذَلَتها صاحباتها أو لُمْنَهَا أو شككن بحبه لها دعته إليها ليرينه ويرين جماله وهو يحكى هذا المشهد :

للثريا قولى له أنتِ همِّى ومنىَ النَّفس خالياً والجَليل
فالْتقينـا فرحَّبتْ ثم قالتْ عمرك اللهَ إيْتِنَا فى المقيل
قُلنَ هذا الذى نلومُك فيهِ لا تَحَجِّى من قولِنا بفَتيل
فصِليهِ فلن تُلامي عليـه وهو أهل الصفاء والتّنويل

فتجيب الحبيبة :

قالتْ انصِتْنَ واستمعنَ مقَالى لستُ أرضىٰ من خُلَّتى بقليل
قد صَفا الْعيشُ والمغيرىّ عندى حبَّذَا هو من صاحبٍ وخليلٍ (١)

وهـذه الأخـرى :

سرعان ما أفصحت عن حبها ، بل ، وجاءته تُعْلِنُ عن شوقها ، فلما رآهـا قـال :

فقلتُ مَنْ ذا الْمُحييّ وانتبَهْتُ له أم مَنْ مُحدِّثُنا هذا الذى زارا ؟ (٢)
قالتْ محبٌ رَمَاهُ الحبُّ آونـةً وهيَّجتْه دواعى الحبِّ إذْ حارا !

ولم يتوقف الإفصاح باللسان بل قالت ودموعها تجرى على الخدين :

تقولُ وعينُها تذْرى دموعـاً لها نَسَق على الخدّين تَجْـرى

١- ديوانه: ٣٤٣
٢- ديوانه : ١٢٢

أنتَ أقرُّ مَنْ يَمشـــى لعينى   وأنتَ الْهمُّ فى الدُّنيا وذكْرى (١)

***

- وهـناك بعيـدًا عن الأعين ، راحـت تحاكيـه بحديث يبعث الْحَنَان والـدفء فى قلب المحبين

فى خـلاء من الأنيـس وأمـــن   فشـفينا غليـلَه واشْتَفَيْنـــا
وضرْبنا الحديثَ ظهرًا لبطـــن   وأتيْنَا من أمرنا ما اشْتَهينا (٢)

- يالها من حبيبة لم تر العين شبيهًا لها :

لم تر العينُ للثريا شبيهـــا   بمسيلِ التلاع لمَّا التقينـــا (٣)

- إنه لم ينس حين ودعته باكيةً ، تعترف بحبها له :

وقولُها ودموعُ العينِ تَسْبِقُهَا   فى نحْرها دَيْنُ هذا القلبِ من عمر(٤)

- ونلمح فى قصته شخصية الأميرة الأموية " فاطمة بنت عبد الملك " ويحكى الرواة أنه لم يكن لها من هم حين حجّت سوى لقاء عمر ، وكان عمر قد تهيأ كعادته لملاقاة الحجيج واستعراض مواكب الغانيات ، وضرب لنفسه مضربا بين ألوف المضارب فى منى ينتظر الفرصة السانحة .. وبينما هو جالس وغلمانه حوله إذا أقبلت امرأة عليها أثر النعمة

١- ديوانه ١٣٥
٢- ديوانه ٣٠٥
٣- ديوانه : ٣٠٤
٤- الديوان : ١١٨

فسلّمت فرد عمر السلام فقالت له : حيّاك الله وقرّبك ! هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : أحب إلى ذلك . قالت : على شرط . تمكننى من عينيك حتى أشدهما وأقودك .. فربطت عينيه .. ثم قادته إلى فاطمة بنت عبد الملك فتحادثا كثيرًا وأقرضها شعرا ، وتكرر اللقاء .

- فلما دنا موعد الرحيل إذا بمضارب عمر فى طريقها واذا به يريد أن يشيعها ويرافقها .. فأرسلتْ إليه عجوزا تنشده الله والرحم وتسأله أن ينصرف عنها ولا يفضحها ، فرفض عمر أن ينصرف عنها إلا بشرط أن توجه إليه فاطمة بقميصها .. ففلت مضطرة ، وزاده ذلك شغفا بها ، وأنشأ يقـــول :

قميصٌ ما يفارقنى حيـــاتى — أنيسٌ فى المقامِ وفى الشخُوصِ !

ولم يزل يتبعهم فى رجوعهم إلى الشام ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وهو يقول :

ضاق الغداةَ بحاجتى صـدرى — ويئستُ بعد تقاربِ الأمـــــرِ
وذكرتُ فاطمةَ التى عُلّقتُهـــا — عَرَضًا فيا لحوادث الدهـــــرِ
ممكورة ردع البعير بهـــا — جم العظام لطيفة الْخَصـــرِ
وكأن فاها بعد ما رقـــدتْ — تجرى عليه سـلافةُ الخمرِ (١)

- وهو يدعى أنها لم تكن تقصد الحج إلا لرؤيته وللقائه :

أومتْ بعْينيها من الهـودجِ — لولاكَ فى ذا العامِ لم أَحْجُجِ

١- الأصبهانى جـ١ / ٧٧ - ٧٨ والدكتور جبور ص ١٣٤ وما بعده

أنتَ إلى مكةَ أخرجْتَنــــى   ولو تركتَ الحجَّ لم أخْرُجِ (١)

وهذه أخرى تعلن أنها ما تجشَّمتْ عنَاء الحج إلا لتلقاه : !

يا أبَا الخطّـاب ما جشَّمْتَنَا   حِجةٌ فيهـا عنـاءٌ وسَهَــــرْ
بَعْد برِّ اللهِ إلا نظـــــرةٌ   منكمُ ليس لها عندى خَطَــرْ

وهى تُوصيه أن يكتم سرَّها :

ولقد زاد فؤادى حـَــزَناً   قولُها لى : إرعَ سرِّى يا عُمرْ (٢)

❊ ❊ ❊

- وفى قصة عمر كشْفٌ عن نفسية الأنثى التى تعرف كيف تداور الأمور وكيف تتجنب أزماتها الشداد وتعرف كيف تتقى المجتمع وتقطع الطريق على الكاشح ، فتنصرف عن العنف إلى الحيلة وتلجأ إلى أختيها والأمر للأمر يقدر ، ولا تنسى فى غمرة الشدة وصيتها : (٣)

إذا جئتَ فامنحْ طرفَ عينيكَ غيْرنا   لكى يحسَبوا أن الهوىَ حيثُ تَنْظرُ

وبها كشْفٌ عن نفسيةِ المرأة وما يَغْمرها من غَيْرة شديدةٍ حين يتَغنّى شخص بجمال غيرها ، كما حدث من أتراب هند :

فتضاحكن وقد قُلْنَ لهَـــا   حَسَنٌ فى كلّ عين مَنْ تَــــوَدْ
حَسَداً حُمّلْنه من شأنهـــا   وقديمًا كان فى الناسِ الْحَسَدْ !

١- الديوان : ٤٨٧
٢- ديوانه : ١٥٢
٣- تطور الغزل ص ٤٢٠

- ومن هنا ندرك أن شخصية المرأة فى قصة ابن أبى ربيعة على نوعين :

١ - المرأة التى تخاف الفضيحة أو التشهير بها ، وهذه لا تحب أنّ يقول فيها شعرا ، وربما أرسلت إليه الوسطاء أو المال ليكف عن القول فيها ، وقد احترم عمر بن أبىَ ربيعة إحساس هذه المرأة وراعى مشاعرها . إذ يقول :

لا تَظُنّى أن التَّراسُلَ والبذ ... لَ بكل النِّساء عندى يَليــقُ

إنَّ منهن للكرامةِ أهــــلا ... والذى بينهن بَوْن سَحِيقُ (١)

٢ - وهناك الشخصية الاخرى من المرأة التى لا تخاف التشهير بها وهــذه يطلق شاعرنا القول فيها كيفما يشاء ، وهذه الشخصية قد لعبتّ دوراً كبيرا فى قصة ابن أبى ربيعة ، فكثيرا ما كانت تعبر عن عواطفها ، وما يثير غضبها أو سرورها ولهوها ، فتقول وهى تلهو دون خشية :

قالتْ : لو أن أبا الخطاب وافَقَنا ... فنلهو اليوم أو ننشد أشعارا(٢)

- وتبدو براعتُه القصصية حين ينقل حديثَ المرأة وأسلوبَ كلامها كما تظهر النساء بأخلاقِهن ، وإذ هنَّ يطلبنه إلى مجالِسهن ويتحدثن عنه ، بل ويتغزلن به !

* * *

١- ديوانه :٤٤٧

٢- ديوانه :١٢١

٣ - الأتـــراب

رأينا أن المرأة فى شعر عمر قَلَّ أن تبدو وحْدها ، وإنما تبدو بين هالة من الأتـــراب !

والسؤال الذى يفرض نفسَه :

لماذا اتخذ عمر بن أبى ربيعة أتراباً لحبيبته ؟

وللجواب عن هذا السؤال نقول : إن حبيبته - كما مر - دائماً ما تكون جميلة رائعة ، ولكنه - رغم ذلك - أراد أن يزيد من جمالها فجعل لها أترابا ، واختارها من بين الأتراب :

إذا ما مشتْ بين أترابهـــا   كمثل الإراخ يطأن الْوَحَل (١)

فاختيار امرأة من بين صواحبها يعنى تفضيلها على سائرهن وذلك لرقتها وجمالها وحسن حديثها أو غير ذلك .

- هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى : أن هؤلاء الأتراب يساعدن شاعرنا للوصول إلى غايته وتحقيق هدفه ومراده !

- ولعل شيئا أبعد من ذلك : أنه أراد أن يرى الناس أنه مطلوب ومعشوق من النساء ! وهو ملك لهن ، و " إن النسوة هنَّ اللواتى يعرضن له ، وليس هو الذى يدعو لها ، ولكنها هى التى تدعو له . (٢)

- وهؤلاء الأتراب لا يساعدن البطلَ فحسب ولا يتوقف عملهن عليه بل يساعدن الحبيبة ، فهن عنصر الخير فى القصة يسْهرن على راحة الحبيب

١- ديوانه : ٣٧٣

٢- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ص ٤٠٣

والحبيبة ، وكثيرا ما تتحدث الأتراب مع الحبيبة ، فتسألهن تبليغ التحية للحبيب :

قالت ثُريا لأترابٍ لها قطف قمن نحيى أبا الخطابِ من كَثَبِ
فَطِرن حدًّا لما قالتْ وشايعها مثل التماثيل قد مُوِّهن بالذهب (١)

وقد تأمر الحبيبة الأتراب في بعض شؤونها ، فيأْتمِرن :

فقالت لأترابٍ لها شِبهَ الدُّمى أطلْن التَّمني والوقوفَ على شُغْل (٢)

- ويبدو أن تلك طبيعة فى المرأة ترتبط بغريزتها التى تدفعها دائمًا نحو الرجل حتى وإن كان توفيقا بين اثنين ويشير إلى ذلك ابن حزم بقوله :
" وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحبَّ أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها : سعْيُها فى تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحُليها لعروس مُقِلَّة " ثم يعلل لتمكن أسباب الحب منهن بقوله : " وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شىء إلا الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه .. لا شغل لهن غيره ولا خلقن لسواه " (٣)
فهو يربط بين غريزة المرأة وعملها فى الجماعة .. !

***

١- ديوانه : ٤٢٨
٢- ديوانه : ٤٣٤
٣- طوق الحمامة : ٥٩

ونعود إلى الاتراب اللاتى يشعرن بمشاعر الحبيبة ، فيبكين لبكائها :

وموقفَ أتراب لها إذ رأيْنَنِى بكيْنَ وأبدينَ المعاصِمَ والْحدَقْ(١)

ويختلف عدد الاتراب ، فهذا مشهد لاثنتين مع الحبيبة :

قالت لتربين لهـا عندنـــا هل تعرفانِ الرجلَ المُقْبِلا ! (٢)

وذاك مشهد لاتراب كثيرات يحكين معها :

فقالتْ لاتراب لها شِبه الدُّمى أطلْنَ التمنّى والوقوفَ على شغل(٣)

❊ ❊ ❊

٤ – الرسـل والرسـائل

كثيراً ما كانت هناك قيود - من عاداتٍ وتقاليد وغيرها - حالت بين بطل القصة وصاحباته وكانت تلك القيود عقدةً فى قصته ، حاول أن يلتمس لها حلاً تمثّل فى دورِ الرسل والرسائل ، وهما مظهر من مظاهر التجديد فى قصة عمر.

أما الرسل : فكانوا - كما هو واضح فى شعره - رجالاً ونساءً أحراراً أو من الجوارى والغلمان ! الكل توسّط له ، وقام بدور هام فى دفع أحداث قصته ! فصاحبنا - وقد حِيل بينه وبين ما يشتهى - يجد نفسه

١- ديوانه : ٣٩٨

٢- ديوانه : ٣٥٤

٣- ديوانه : ٣٢٤

مضطرا لان يلجأ إلى رسول يمهّد الطريق ويُريح نفسه إمَّا بوصلٍ أو فراق - واليأس إحدى الراحتين ! - وتتعدد شخصية الرسول : فقد يكون مُجرِّبا عارفاً بأمور الحب ، عالماً بحقيقة المشاعر ،.وقد يكون مغفلا لا تتعدى معرفته أداء رسالته إلى صاحبها ! فهذا رسوله المجرب راح يخبرها بموعد اللقاء :

فبعثنا مجربًا ساكنَ الريح ... خفيفـًا مُعـاوداً بيْطـارا
فأتاها فقال ميعادُكِ السّـ ... ـحر إذا الليلُ سدَّل الأستار(١)

- وذاك رسولها جاء يُعْلِمُه : أن موعد اللقاء بعد أن يسقطَ القمر :

هلاَّ دسَسْتَ رسولاً منك يُعْلِمنى ... ولم تعجِّلَ إلى أن يسقُط القمرُ(٢)

- وربما تبعث إليه رسولاً بالسلام والتحية ، بعد شوق هزَّ قلبه :

قد أرسلوا كى يحيونى فقلتُ لهم
كيف السلام وقد عدَّى به القَدَرُ ؟ (٣)

- وربما انعكست صورة العشق فأرسلتْ هى بشوقها إلى عمر :

قالتْ لتربٍ لهـا منعمـةٍ ... كالريم يقْرو نواعمَ الشجـر
هل من رسولٍ يَكْفِي حوائجَنَا ... بحاجةٍ تُشْتَهىَ إلىٰ عمـر(٤)

وقد ترسل المرأة إليه ليكفَّ عن القولِ فيها ، ويَحْترم عمرُ مِثْلَ هذه

١- ديوانه :١٣٩
٢- ديوانه :١١٥
٣- ديوانه :١١٩
٤- ديوانه :١٤٦

المشاعر ، فليستْ كلُّ النساء عنده سواء :

لا تظنّي أن التراسلَ والبـذْ ... لَ بكل النساءِ عندي يليـقُ
إن منهنّ للكرامةِ أهـلا ... والذي بينهن بَوْن سحيـقُ (١)

- وقد ترسلُ إليه رسولاً ليخبره باعتذارها عن زيارتها له خوفَ الكاشح والحاسـد :

فجاءني ناصحٌ أخـو لَطَـفٍ ... فقال في خِفيةٍ وفي سَـتَرِ
تقول : إن لم نزرك من حذر الْـ ... كاشحِ والحاسدين لم تـزُرِ (٢)

لقد اختارت المرأة رسولاً ناصحاً حذراً أمينًا فطنا :

فجاءني ناصح أخـو لَطَـفٍ ... فقال في خِفيةٍ وفي سَـتَرِ
تقول : إن لم نزرك من حذر الْـ ... كاشحِ والحاسدِين لم تَـزُرِ

- وقد يُخدع المحبان برسولٍ كاذب :

كذَبَ الرسولُ فسَلْ مُعاذةَ ، هكذا ... كان الحديثُ ولا تكُنْ عَجْلانَا (٣)

* * *

فالدور الذي تقوم به الرسل هام ومتعدد : فهو إما لضرب موعد ، وإما لانقطاع وصل ، وإما لإخبارٍ برحيل ، وإما لغير ذلك مما يقتضيه الوصل أو الهجران بين الأحباب ..

---

١ - ديوانه : ٤٤٧
٢ - ديوانه : ١٤٦
٣ - ديوانه : ٢٦٨

- وقد تمتد مهمة الرسول إلى توديع صاحبته عند الرحيل نيابةً عنه لا لا يستطيع الذهاب بنفسه :

قالَ الرسولُ وقد تحذّر واكفٌ فكَـفَفْتُ منه مُسْبلاً مِدْرَارا
أَنْ سِرْ فشيِّعْنا وليس بنـازِع لو شدَّ فوق مَطِيِّه الاكوارا(١)

- وقد يفصح عن اسم الجارية التى أرسلها ، فهذه " أمّ سُفيان " راحت لصاحبتـه

قالت فأنتَ الذى أرسلتَ جاريةً وهْناً إلى الركبِ تُدعى أمَّ سُفيانا؟ (٢)

- كما أرسل الجارية " تَهْلُل " برسالة حب واعتذار إلى " زينب الجمحية " وقد أجابتـه :

حين أرسلت تهْـــلُلاً وأخُـو الـودِّ مرسَـــلُ
باعتذارٍ من سخطهــــا علَّ أســـماءَ تقبـل
فأتتْنى بمـا هـــــو يتُ مـن القـولِ تهْـــللُ
حين قالت تقول زيـــــ نبُ إنـــا سنفعـــلُ (٣)

* * *

أما الرسالة : فأغراضها هى نفس أغراض الرسل ، وقد أدت نفس الدور فى قصة عمر ، فكثيراً ما كانت أداة تفاهم بينه وبين صواحبه :

فتلك رسالة بعث بها إلى "نعم" مع جارية تدعى : (نَصيرةَ) فعادت

١- ديوانه : ١٢٧
٢- الديوان ص : ٣٠٧
٣- الديوان : ٣٤١

فنقلت إليه عن "نعم" أنها لم ترض عن رسالته وأعرضت عنها ، ويبدو أنه عاتب "نعما" فأنكرت وزعمت أن جاريته "نمّامه" واشية وكان الأولى به ألا يرسل مثلها رسولا ، وقد ذكر ذلك في مشهد شعري بارع يقول فيه :

أنبئتُ أنكِ إذ أتاكِ كتابُنا ... أعرضتِ عند قِراتكِ العُنوانَا
ونبذْتِهِ كالعُودِ حينَ رأيتِهِ ... فاشتدَّ ذاكَ عليَّ مِنكِ وَسانَا (١)
قالتْ لقد كذبَ الرسولُ فَقَدْتَهُ ... أبقولِ زورٍ يَرتجي إحْسَانَا
بل جاءني فقرأتُهُ مُتَهَلِّلا ... وجْهِي وبعد تهلل أبكَانَا
قد قلتُ حين رأيتُه لو أنَّه ... يابِشرُ منه سوى "نَصيرة" جَانَا
أرسلتَ أكذبَ مَنْ مشىَ وأنمَّهُ ... من ليس يكْتُم سِرَّنا أعْدَانَا (٢)

- وهذه فتاة كثيراً ما كانت ترسل إليه :

ارسلتْ أسماءُ إنَّا ... قد تبدَّلنا سِوَاكَا
بدلاً ماستغْنَ عنَّا ... بدلاً يُغْنِي غِناكا (٣)

وهو يُعْلِن عن مشاعره تجاه رسالة أتته قائلا :

أتاني كتابٌ لم ير الناس مثلَه ... أُمد بكافور ومسكٍ وعنبرِ
كتابٌ بِسُكٍ حالكٍ وبصُفْرةٍ ... ومسكٍ رُصُهابيٍّ يُعَلُّ بِمجْمَرِ
وقرطاسُه قوهيَّةٌ ورباطُه ... بعقدٍ من الياقوتِ صافٍ وجوهرِ
على تبرةٍ مسبوكةٍ هي طينُه ... وفي نقشه : تفديك نفسِي ومعشرى

١- وسانا : أصله وساءنا بالهمزة ، فصنع به مثل ما صنع في (قراتك) بالبيت السابق
٢- ديوانه : ٢٦٧ - ٢٦٨
٣- ديوانه : ٤٧٣

وفى جوفهِ : منّى إليكَ تحيةٌ ... فقد طال تَهْيامى بكم وتذكُّرى
وعنوانه من مستهامٍ فؤاده ... إلى هائمٍ صبٍ من الوجد مُشْعَرِ(١)

***

- وهذه أميرة عراقية (٢) أرسلت إليه للقائه - وهى بمكة - وكانت الآية بينهما أن تسمع ناشداً ينشِد شيئاً مفقودا ، فذهب عمر وَغَيَّب بغْلته ورجا صديقاً اسمه "بُديح" أنْ يَنشدها فى ذلك الحىّ ، وانطلقتْ الحيلةُ على صديقه فسار إلى ذلك الحى ونَشَد البغلة فخرجتْ وقد فهمت الآية :

وآيــةُ ذلك أن تسْـمَعِي ... إذا جئتُكم ناشـداً ينشـدُ(٣)

- ولنقف مع هذا المشهدِ القصصى ، وهو يودعها إلى العراق :

قال الخليطُ : غداً تصدُّعنا ... أو بَـعْده أفلا تشيِّعنـا ؟ (٤)
أما الرحيل فدون بعد غـدٍ ... فمتى تقولُ الـدار تجمعنـا
عجبًا لموقِفنا وموقِفِهـا (٥) ... وبسمع تِربيها تُراجِعُنَـا
ومقالها : سِرّْ ليلةً معنـا ... نعْهَـد فإن البينَ فاجِعُنَا (٦)
قلتُ : العيونُ كثيرة معكم ... وأظن أن السـيرَ مانِعُنَـا
لا بل نَزُوركم بأرضكـم ... فيُطَـاع قائلكم وشافعنـا

١- ديوانه : ١٥٠
٢- هى بنت محمد بن الأشعث الكندية وكثيرا ما كان يلمّح إليها باسم هند (راجع الأغانى جـ١ / ٨٨ - ٩١)
٣- ديوانه : ٣٠٩
٤- فى الديوان أو شيّعَهُ ص ٤٠١
٥- فى الديوان : عجبا لموقفها وموقفنا
٦- فى الديوان : فإن البين شائعنا

قالت : أشيءٌ أنتَ فاعِلُـــهُ ممـّـا لَعَمـْـرُك أم تُخَادِعُنـــا ؟
بالله حدِّثنا نؤمِّلُـــــه واصدُق فإن الصدق واسِعنـــا
اضرب لنا أجلاً نَعُـدُّ لـــه إخـلافَ موعِـدِه تقاطُعُنَـــا (١)

- ويظهر من قصة عمر وزينب الجمحية أنه كان يحبها حقاً وأنها لم تكن من اللواتى كان يتشبب بهن لمجرد التشبيب لمجرد حبه للجمال .. ولكن يبدو أن شيئا حدث بينهما فجعله يرسل إليها بالهجر ، وتدور بينهما المراســلة :

عمر :

ياخليلى مِن مَلامٍ دعـــانى وألمّا الغـداة بالأظعـــانِ
لا تلوما فى أهلِ زينب إن القـ ـلب رهـنٌ بآل زيـنبَ عـاني
لم تدع للنساءِ عندى حظـــاً غيـر ما كنتُ مـازحاً بلســانى
هى من أهل الصفاء والود منى وإليهـا الهـوى فلا تَعْـذِلانى

زينب :

حين قالت لأختهـا ولأخـــرى مــن قطيــنٍ مولّـــد : حـــدِّثانى
كيف لى اليوم أن أرى عمر المر سِل بالهجر سرًّا فى القولِ أن يلقانى

صاحباها :

١- راجع الأغانى جـ١ / ٩١ والديوان : ٤٠٢

قالتا : تَبْعثى اليه رَسُولاً ويُميتُ الحـديثَ بالكِتْمَـانِ

عمـر :

إنَّ قَلْبى بَعْد الذى نلت منها كالْمُعنَّى عن سَـائرِ النِّسْـوانِ ! (١)

ولقد أدرك القدماء صدق حبه لها ، فعلق ابن أبى عتيق على هذه الأبيات بقوله : رضيت لها بالمودة وللنساء بالدهفشة ، قال : والدهفشة : التجميش (٢) والخديعة بالشىء اليسير (٣)

إذن " فالرسل عنصر بارز فى حكايات عمر ، وفى أساليبهم التى يلجؤون إليها ، وذلاقتهم التى يتمتعون بها ، وحوارهم الذى يديرونه ، ولذلك يشغلون الحَيِّزَ الكبير ويكون لهم الأثر الواضح إغناءً للقصة وتطرية لمواقفها " (٤)

---

١ – الأغانى جـ ١ / ٩٤ – ٩٥ وفى الأبيات بعض التغيير عما فى الديوان ص ٢٨٨
٢– التجميش : المداعبة والمغازلة
٣– الأغانى جـ ١ / ١٠١
٤– تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام د . شكرى فيصل ص ٥١٦

- الرقبـــــاء .

- الحسـاد .. الوشـاة .

- العاذلــــون .

قيل : ثلاثة يقتلن الحبّ :

(عيـنُ الرقيـب ، وقلبُ الحسـود ، ولسانُ الواشى)

ولئن صحّتْ هذه المقولة ! فلقد مثّلت هذه الأمور الثلاثة - فضلاً عن العذال - نوعًا من العقدة فى قصةِ شاعرنا ، وقد راح فى مغامراته يتلمّسُ لها الحلول .. !

٥ - الرقبـــاء

تُمثّل الرقباء جانبًا قويا من الأزمة فى القصة ، فلطالما وقف الرقباء حجر عثرة فى طريق ابن أبى ربيعة ، فحالت دون وصوله إلى الحبيبة .
- والعجيب أن نرى - حينئذ - رأيين متباينين الأول : يرى أن لقاء الحبيبين حق من حقوقهما . والآخر : يراه فسقًا وعبثًا وجرما

ومن هنا اختلفتْ نظرة أدبائنا إلى ابن أبى ربيعة فبعضهم يراه فاسقا "كان عمر فاسقًا يتعرَّض للنساء الحواج فى الطواف وغيره من مشاعر الحج .. " (١) ويراه بعضهم عفيفا "إن عمر كان عفيفا يصف ولا نيف" (٢)

- ومن منطلق الرأى الأول : ، وقف جماعة من الرقباء فى وجه مغامراته العاطفية ، فحالوا دون رغباته . فالحبيبة تدعوه للسهر معها :

ومَقالِها : سِرْ ليلةً معنَـــا نعْهَـــد فإنَّ البينَ شائِعُنَـــا

فيجيبها عمر : بأنه لا يقدر أن يصل إليها من كثرة العيون :

قلتُ:العيونُ كثيرةٌ معكُمْ وأظنُّ أن الســيرَ مانِعُنَـــا (٣)

أنـواع الرقبـــاء :

- والرقباء فى القصة على أنواع :
١ - فمنهم الأعداء الذين أرادوا قتلَه ، وقطعَ اللذّة عنه ، غيرةً منه لأنه

١- الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ٢ / ٤٥٨
٢- الأغانى جـ ١ / ٥١
٣- ديوانه : ٤٠٢

أقدرهم على اقتناص الجميلاتِ ، وهُنَّ أميلُ إليه :

مَا بَالُه حينَ يأتى - أختِ - منزلَنا   وقد رأى كثرةَ الأعداءِ إذْ حَضَروا
لَشِقْوةٌ من شَقَائِى أختِ غَفْلَتـنـا   وشُؤْمُ جَدِّى وحَيْنٌ سَاقه القَدَرُ(١)

٢ - ومنهم الرقباء الذين لا يعرفون من شأن عمر شيئًا إلا صدفةً أو عرفوه ولكن لا يهمهم من أمره شيئاً ، لذلك يكون الأمر متعلقا بالفضيحة لا غير . فالرعاة - مثلا - لا يريدون أن يشاركوا عمر حينما يخرجون إلى المرعىٰ فجرًا ، والسُّمار لا يفكرون فى شأنه فهو يخالف وقت هؤلاء ، ويتريث حتى يفقد الأصوات وتغيب الأضواء :

فلما فَقَدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ   مصابيحُ شُبَّتْ بالعَشاءِ وأنْؤُرُ
وغاب قُميرٌ كنتُ أهوىٰ غُيوبَـه   ورَوَّح رُعيـانٌ ونُـوم سُمَّـرُ(٢)

- ورغم تلك الحيطة ، هو لا يأمن المفاجأة :

فما راعنى إلا منادٍ ترحَّلوا   وقد لاحَ مفتوقٌ من الصُّبح أشقرُ
فلما رأتْ من قد تنبَّه منهمُ   وأيقاظهم قالتْ أشِر كيفَ تأمرُ(٣)

٣ - ومن هؤلاء الرقباء : الأزواج الذين يغارون على زوجاتهم ، والآباء الذين يخشون على بناتهم . ومن الباحثين من يرى أن هؤلاء لم يخشوا من شعر عمر هذا لأنه نوع من العبث الكلامى فيقول :

١- ديوانه : ١١٥
٢- ديوانه : ٩٦
٣- ديوانه : ٩٩

" وعندى أن ابن أبى ربيعة صاحبُ دُعابةٍ لا صاحب دَعَارة ، ورجل قولٍ لا رجل عمل ، ولو لم يكن كذلك لما تغاضَ أشرافُ قريش ، وفى مقدّمتهم بنُو أمية عن ذكر كرائمهم فى شعره " (١)

- ونعود للرقباء وهم يترصدون له ، وهو فى طريقه إليها ، ينساب انسيابا:
وحشتَ انسيابَ الايْمِ فى الغَيْلِ أتّقى الـْ عيونَ وأخفِى الوطءَ للمُتَقفّرِ(٢)

***

واذا كان الليل وشدة ظلامه ، وغياب نجومه ، عونًا له على الرقباء فإن الأمر يزداد خطورة إذا أراد لقاءها وقد انقشع الظلام ! حينئذ يتنكر فى زى من الأزياء ! وربما يتنكر فى زى امرأة :

فقالتْ لها الصغرى سأُعطيه مِطْرَفى وَدِرْعِى وهذا البُردَ إن كانَ يَحْذَرُ
فكان مجنّى دونَ مَنْ كنتُ أتّقِى ثلاثُ شَخُوصٍ كاعبانِ ومعْصِرُ(٣)

إن بطل القصة يتخذ موقفين من الرقباء فى سبيل الخلاص منهم :
الأول : التنكر فى لقائه نهارا ، والآخر : التسلل والانسياب ليلا عندما تغْفَل العيون .
- وفتاته "ليلى" تشكو إليه خيانة بعض الناس أمِنَتْهُم فبثُّوا حديثَها وهى تحذّره من كثرة العيون حولها ، وتربُّص الرقباء به ، فيردُّ عليها بأن البلاد قد ضاقت عليه ، فهو وان تجنبها فسيظل قلبه عندها وسيظل وحده

١- عصر القرآن محمد مهدى البصير ص ١٣٤
٢- ديوانه : ١٠٧
٣- ديوانه ١٠٠

بها رغم فراقه وهو يعرض هذا كله فى مشهد قصصى :

لقد أرسلتْ فى السِّرِ ليلىٰ بأنْ أقِمْ ولا تَأْتنـــا إنَّ التَّجنُّبَ أمثــلُ
لعلَّ العيـــونَ الرامقـاتِ لِوُدِّنـــا تُكذِّبُ عنَّـا أوْ تَنامُ فتَغفــلُ
أُناسٌ أمِنَّـاهم فبثُّوا حَديثَنـــا فلمَّا قَصَرْنا السِّرَ عنهُم تَقوَّلـوا
فقلتُ وقد ضاقتْ علىَّ بِرُحْبهــا بِلادِى بما قَدْ قِيل فالعينُ تَهمِــلُ
سأجتنبُ الدَّارَ التى أنتمْ بِهــا ولكنَّ طَرْفِى نحْوكم سوفَ يَعْدِلُ(١)

***

- والطريفُ أنَّه رغم كثرة الرقباء ، وما يتْبعه من هَجرٍ وَصَدٍّ أو فُراقٍ وبُعْد ، لا نجد فى القصة أنينَ المحب ولا بكاء العاشق ، بل أقصى ما يكون من أثرٍ هنا أنه يفتح الطريق إلى العتاب ، وله فيه باع طويل فى المجادلة بلسانٍ زلق !

- والعجيب : أنه مع كثرة الرقباء ، وشدة الأعداء ، فإنا لم نظفر يومًا بعمرَ رهينة ، أو سجينا ! إنه بطلٌ فَطِن ، جرىء مغامر ، له خبرة فى الخلاص منهم والاحتيال ! إنه دائمًا يعودُ سالماً منتصرًا !!

- وفى القصة ما يُلْفِتُ نظرَ الباحث : فالرقباء لا يترصَّدون للمرأة ، بل يترصدون لجانبٍ واحد ، ذلك هو عمــر بطل قصتــه . !

***

١- الديوان :٣٣٣

٦ - الحساد والوشاة

هؤلاء الأشخاص يمثلون جانب الشر ، وهم يتنافسون فيه ، وذلك بالقطيعة أو بالخيانة أو بالهجر أو بغير ذلك .

والفارق بين الرقباء ، والوشاة واضح وإن اتفقوا في الهدف ، فالرقباء يقفون في وجه عمر علانية دون خوف أو مواربة أما الوشاة : فيعملون في الخفاء ، عمل اللئام والجبناء ، إنهم يرتدون دائما لباس الخديعة ليجيدوا النميمة أو الوقيعة بين عمر وحبيبته ، فهم يهدفون إلى الاثنين معًا ، فهذا واشٍ يحكى عنه عمر :

يا سُكْنُ كم ممن تودَّد عندنا أُقصِى وكم مِن كاشحٍ متعرِّضِ
وصَرَمْتُ فيكِ أقاربى وعواذِلى ووصلتُ عمدًا فيكِ حَبْلَ المُبغِضِ
وحَفِظْتُ فيكِ أمانةً حُمِّلتُها وعَصَيْتُ كل مُحرِّشٍ ومُعَرِّضِ (١)

- إنه واثق في مودة حبيبته فلا يعْبأ بقول الوُشاة ولا يُقيم لهم وزنا :

أعاتِكَ ما يَنسىٰ مودَّتِك القلبُ ولا هو يُسليهِ رخاءٌ ولا كَرْبُ
ولا قولُ واشٍ كاشحٍ ذي عَداوةٍ ولا بُعْدُ دارٍ إن نأيتِ ولا قُرْبُ (٢)

- وها هو ذا يحذر الحبيبة من كلام الكاشحين ووشى الوشاة ، ويأمرها أن تحذو حذوه في تكذيبهم والإعراض عنهم : (٣)

لا تَسْمعِنَّ كلامَ الكاشحينَ كما لم أسْتَمِع بكِ ما قالوا ولا هَضَبوا

***

---

١ - ديوانه : ٤٧٨
٢- ديوانه : ٤٣٥
٣- ديوانه : ٤١٧

ورغم هذا التحذير ، يقع الطرفان فريسةَ وشاية قاتلة تزرع الهجر بينهما ، ثم يلتقيان فيلقى كل منهما باللوم على الآخر :

أخطأتِ أنتِ بدأتِ بالصَّرْمِ وأتبعتِ منّا الهجرَ بالسِّلْمِ
وزعمتِ أنّى قد ظلمتُكُمُ كلاّ وأنتِ بدأتِ بالظُّلْمِ
وسمعتِ بى قولَ الوُشاةِ بلا ذنبٍ أتيتُ به ولا جُرْمِ (١)

- وتتكرر المأساة ، ويقع الطرفان فى شِباك الوشاة ، ويعود الحبيب ليقول :

فقُولى لواشِينا كما كُنْتُ قائِلاً لواشِيكُم رغْمًا: عُصِيتَ عَلَى رَغْمِ
كِلانا أرادَ الصَّرمَ ما اسطاعَ جاهِداً فَأَعْيا قريبًا ما لسَّماحةِ والصَّرمِ (٢)

- ويبقى الودُّ ما بَقِىَ الْعِتاب ! .. ويعرف الطرفان كيدَ الْوُشاة والحساد .. إنهم يغيّرون الحديث ، ويحرّفونَ الْكلم عن مواضعه :

لا تُطِع بى فدتكِ نفسى عدوًّا لحديثٍ على هواهُ افْتَراه (٣)

***

والطريف : أن الوشاة عنده لا يأتون ليشكوَ هو منهم وإنما لتشكو عاشقاته منهم :

ولما التقينا سلّمتْ وتبسّمتْ وقالتْ كقولِ المعرضِ المتجنّبِ
أمِن أجْلِ واشٍ كاشحٍ بنميمةٍ مَشَى بَيْننا صدّقتَه لم تُكذِّبِ

١- ديوانه : ٢٥٤
٢- ديوانه : ٤٠٠
٣- ديوانه : ٤٠٤

قَطَعْتَ وِصَالَ الحبلِ مِنَّا ومنْ يُطِعْ   بِذِى وُدِّهِ قَوْلَ الْمُحَرِّشِ يُعْتَبِ (١)

ونلمح أيضًا هنا : أن المرأة ، هى التى تشكو من الوشاة وهى التى تطلب إليه ألاّ يصدقهم وأن لا يقطع حبال الود والحب ، وهذا - فى رأى - خروجٌ على المألوف عند المرأة العربية ، ولعله من المعانى الجديدة عند عمــر !!

***

١- ديوانه :٤٢٧

٧ - العاذلـــون

ونرى فى القصة عددًا من العُذَّال والناصحين وهم على نوعين :

الأول : نفسه اللوَّامة : فقد كانت باضطرابها وتردّدها عذولاً تنهاه أحيانا وتندم على ما قامت به من المغازلات الغرامية ، والمغامرات الليلية وغيرها ، وربما يكون هذا الرادع النفسى رد فعل أو نتيجة طبيعية لفشله فى بعض مغامراته فتراجعه نفْسُه وحينئذ يمسك زمام عواطفه فيثوب إلى رشده ويتراجع حينا من الوقت :

يا قلبُ أخْبِرنى وفى النأْيِ راحــــةٌ
إذا ما نوتْ هندٌ نوىً كيفَ تصْنــعُ ؟
وللصَّبرِ خَيْرٌ حين باتتْ بوُدِّهـــا
وزجْر فؤادٍ كان للبين يَخْشَــــعُ (١)

لكنه لا يلبث أن يعود على أثر رؤية إحدى الجميلات ، فيتصابىٰ وقد ركب هوى عواطفه التى تنبض بالغرام !

- وعلى أيةِ حال فإن هذا العاذل يشكِّل جانباً لا يُستهان به ! نرى ذلك وهو يصارع نفسه ، فيقول :

وأعذِلُ نفسِى فى الهوىٰ فتَعُوقُنى ... ويأْمرنى قلبٌ بِكُمْ كَلِفٌ صَبٌّ (٢)

وأقوىٰ عاذلٍ كانت نفسه تلومه به : هو الشيب ، وقد جاوز سِنَّ الشباب :

١- ديوانه : ١٨٥

٢- ديوانه : ٤٣٦

عَجِبتْ إذْ رأتْ لِداتىَ شابُوا وقتيرًا مِنَ المشيبِ عَـلانى (١)

وقولـه :

رأينَ الغوانى الشيبَ لاحَ بعارِضِى فأعرضْن عنّى بالْخُدودِ النَّواضِـرِ

وكُنَّ إذا أبصرْنَنِى أو سَـمِعْنَنى سَعَيْنَ فَرَقَّعْنَ الكُوىٰ بالمَحَاجِرِ(٢)

فهو وان لَمْ يُصرِّح بأن العاذِل الأول هو المشيب ، فالمفهومُ من سِياق الكلام استجابتُه للشيخوخة ، وقعُوده عن طلب الغوانى .

أما العاذل الآخر : فهو العاذل الصديق من الناس راح يصدُّه ، وقد أراد به الخير أو الشر :

أيها العاذِلُ الذى لجَّ فى الـ ـهجرِ علامَ الَّذى فعلْتَ ؟ ومِمَّا ؟

فيم هَجْرى وفيم تَجْمَعُ ظُلْمِى وصدودًا ؟ وَلِمَ عَتَبْتَ ؟ وَعَمَّا ؟ (٣)

فالعاذِل فى القصة عنصرٌ يمثل جانبين : الاول : إيجابى ، وهو الخير . والآخر : سلبى ، وهو الشر ، وها هو ذا يلوم حبيبته التى سمعتْ فيه كلام العاذل :

وأَطَعْتِ فىَّ عواذلاً حَمَّلْنَكُمْ وَعَصيْتُ فيكِ الأهلَ والإخْوانَا (٤)

* * *

١- ديوانه :٢٨٩
٢- ديوانه :٤٩٣
٣- ديوانه :٢٥٠
٤- ديوانه :٢٦٧

- وقد يحاول العاذل أن ينالَ من محبوبته ، فيتقوّل عليها ، ولكن عمر لا يصدقه بل يزيده كلامه عنها إصرارا عليها ، وإجلالا لها :

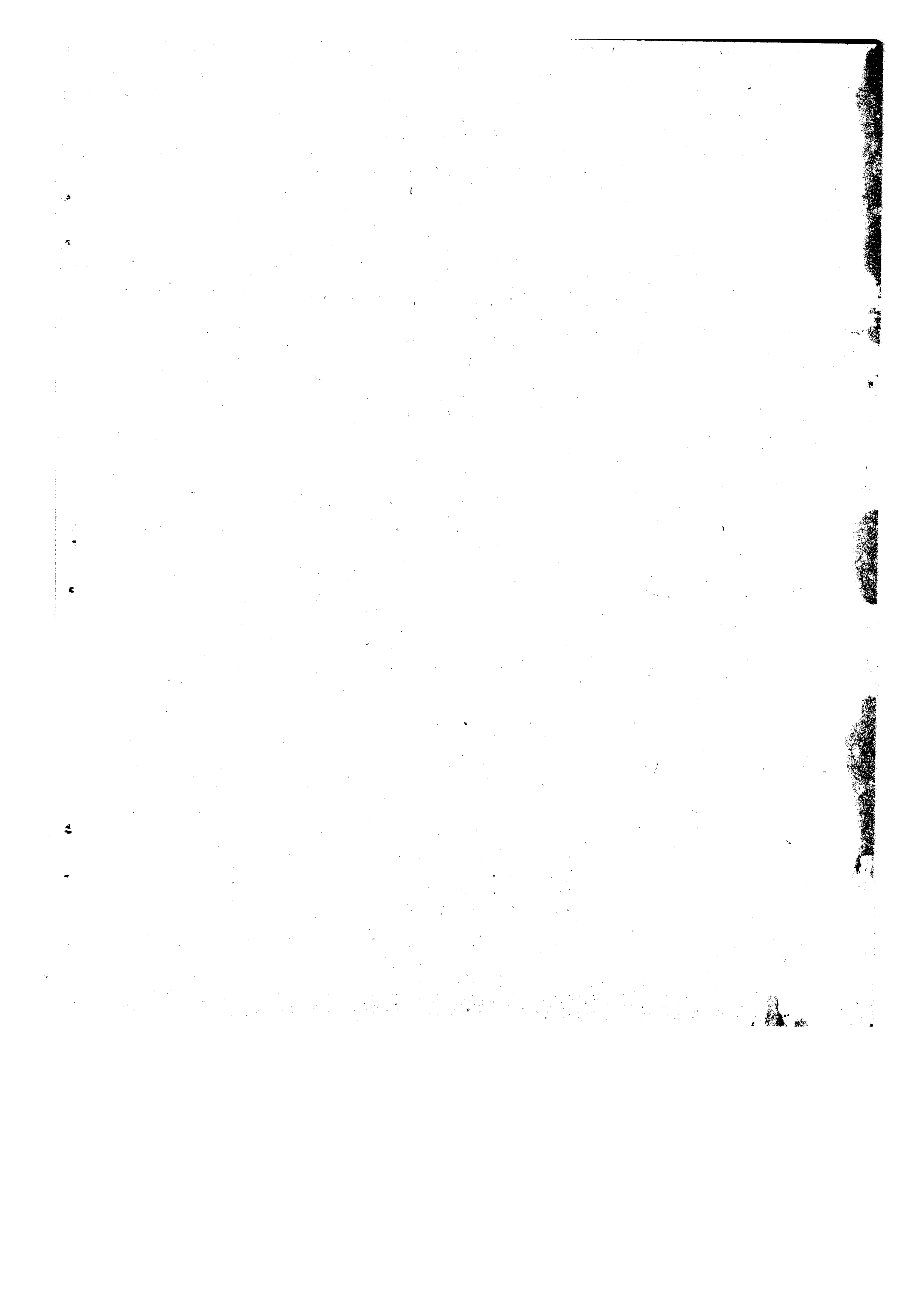
أيُّها العـاذِلِ أقـلّ عِتَـابِى   لمْ أُطِع فى وِصَالِها الْعـُذّالاَ
إنّ ما قُلْتَ والذى عِبْتَ مِنْها   لم يَزِدْها فى العيْنِ إلاَّ جَلاَلا
لا تَعِبْهَـا فلنْ أُطِيعَك فِيهـا   لم أجِدْ للوُشَاةِ فيها مَقَالاَ (١)

* * *

- وهكذا تبدو أشخاص القصة حيّةً فى خَيال القارئ - لا مجردَ عرائس خشبيةٍ تتحرك - فقد لعبتْ دورًا هاما فى توضيح القصة ، وتوجيه الأحداث ، متفاعلةً مع البيئة .

* * *

١- ديوانه : ٣٦٣



الفصل الثالث

بيئةُ القصة

- البيئة الطبيعية .
- البيئة الاجتماعية .
- البيئة المكانية .
- البيئة الزمانية .
- ملائمة الزمان والمكان .

تمهيد :

- البيئة عنصر هام من عناصر القصة ، فهى المجال أو الوسط الطبيعى والاجتماعى الذى يعيش فيه أشخاص القصة ، متفاعلةً مع من حولها فى إطار زمانى ومكانى معين .

فالبيئة فى القصة : تشمل البيئة الطبيعية (الجغرافية) وما فيها من مؤثرات حسية .. والبيئة الاجتماعية : حيث مسكن الحبيبة ، وهيئته ، والطبقة الاجتماعية التى تعيش فيها ، وبعض عاداتها ..

- **كما تشمل أيضا** : البيئة المكانية والزمانية وملائمة الزمان والمكان لأحداث القصة . " فبيئة القصة هى حقيقتها الزمانية والمكانية أى كل ما يتصل بوسطها الطبيعى وبأخلاق الشخصيات وشمائلهم وأساليبهم فى الحيـــاة " (١)

ونرى فى قصة ابن أبى ربيعة البيئة من جوانبها المختلفة :

١ - البيئة الطبيعية (الجغرافية) :

أرض الحجاز هى مسرح القصة ، وقد أمدَّته الطبيعة بمقومات هذا اللون القصصى . ففى كثير من أشعاره أسماء الأودية والغدران والبِطاح والجبال التى مرَّ بها أو كان يلتقى عندها بصواحبه حول مكة والطائف والمدينة من بلاد الحجاز ، وفى شعره .. ما لا يقل عن مئتى موضع ذكرها بأسمائها .. وهو أكثر الشعراء ذكرًا لمشاعر الحج . فشعره معجم

---

١ - فن القصة يوسف نجم ص ١٠٨

جغرافى موجز ، دال على أن هذه المواضع عرفت بتلك الأسماء منذ ذلك الوقت .(١)

- كما صور الطبيعة بما فيها من كواكب ونجوم ، ومطر وغمام ، وليل ونهار ، وأودية وأنهار .. وهو ما صورها إلا ليصلَ منها إلى أجملِ ما فى الطبيعة وهى المرأة !!

***

٢ - البيئة الاجتماعية :

يرى بعض الباحثين أن شعر بن أبى ربيعة كان مرآة للمجتمع الحجازى فى عصره ، والمصدر الأول لفهمه على حقيقته ، حتى إن الدكتور طه حسين ليذكر أنه لا يَعْرِف شاعرًا إسلاميًا استطاع أن يمثّل عصره ، والبيئة التى عاش فيها كعمر ، كما يراه مرجعًا لدراسة الحياة الحجازية على حقيقتها فى صدر الدولة الأموية فيقول عنه :

" تلك نعمة يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى ، حين يُظْهِر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت إليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته والتى كانت بعيدة الأثر فى عصره" (٢)

ويرى طه حسين أيضا : أن شعر عمر كان مرجعًا لدراسة العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة ففيه : "ترى المرأة العربية المُتْرَفة واضحةً جلية الصورة .. والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال

١- راجع عمر بن أبى ربيعة ص ٥٦٢

٢- حديث الأربعاء م ٢ جـ ١ ص ٢٩٩ - ٣٠٠

والنساء فى هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كلّ ما أراد" (١) - وكلام طه حسين هذا - رغم أنه يفيد فى بحثنا - يحتاج إلى مراجعة وأرى ضرورة الاحتراز ، فما ذكره إنما يعنى أن الحجاز كان بمعزل عن السياسة أو الامور العامة للدولة ، وأنه قد انصرف إلى حياة اللهو والترف أو إلى أموره الخاصة والتى كان يمثلها عمر بن أبى ربيعة .

وأنا لا أستريح إلى تلك المسلمة ، فقد كان إلى جانب هذه الطبقة الارستقراطية اللاهية ، كثرة" شاركت فى المعارضات القوية والثورات العديدة ضد الحكم الأموى ، كثورة مصعب بن الزبير وغيره ، ولهذا أرى أن يُؤخذ كلام طه حسين على شىء من العمومية والتجاوز .

وعلى كل حال ربما كان شعر الغزل - حينئذ - هو المستروح الوحيد ، لذا كان شعر عمر بمثابة السينما والمسرح ، ومن خلال تلك المشاهد العمرية ، نرى كثيرًا من ملامح الرفاهية التى كانت ترفُل فيها صاحباته ! كما نرى الطبقة الاجتماعية - الارستقراطية - التى تعيش فيها بل والحرية الاجتماعية التى كانت تتمتع بها المرأة العربية فى عصره ، متمثلة فى عاداتها وأخلاقها ولبسها وتفكيرها ... فهى مثلا لا ترى غضاضة فى أن يجعلها عمر فتاة أحلامه أو بطل قصته " وكان الحسانُ لا يسوؤهن أن يشبِّبَ بهن ابن أبى ربيعة ، ولطالما التمسن الاجتماع به ، وطلبن

١- المرجع نفسه جـ١ ص٣٠٠

إليه أن يقول فيهن متغزلا على أن لا يقول هجرا " (١)

وهكذا أطلق عمر لسانه فى شريفات قريش غيرَ مُتحرِّج ولا هيَّاب ، وكان قوله فى إحداهن بمثابة شهادةٍ رسميةٍ مُعْترفٍ بها فى سوق الجمال بعد أن أقرَّ له الشعراء بأنه أوصفهم لربات الحجال (٢)

❊ ❊ ❊

ولما كان بطل القصة خفيفَ الظل ، لطيفَ الروح ، جميلَ الوجه ، عذبَ الحديث ، لهذا تتشوق صاحباته إليه :

قالتْ : لو أنَّ أبا الخطابِ وافَقَنا ... فنلهو اليومَ أو نُنشِدِ أشْعَارا

ولربَّما بلغت الجرأةُ ببعض النساء أن يَبْرُزْنَ مستشرفات من خوخات الأبواب فى دورهن للتحدث إلى الشباب .. أما صاحبةُ عمر فهى شريفة ليست من هاتيك اللَّواتى يبرزن من الخَوْخَاتِ والسدد لمشاهدة الرجال (٣)

بَيْضاءَ آنسةٍ للخِدْرِ آلفـةٍ ... ولم تكنْ تألفِ الخَوْخَاتِ والسُّدَدا

والمتأمل فى قصة هذا الشاعر الحضرى يرى - أحياناً - بداوة تستخفه وتستصبيه ، كما نرى بيت الحبيبة الذى يدخله ، إنه غالباً ما يكون خيمة متواضعة يلفُّها هدوء وفضاء ، وبذلك تسهل النظرة واللقاء ، والخيمة على هذه الصورة إنما تساعد على إنماء الحب أكثر مما يساعد

١- أدباء العرب بطرس البستانى ص / ٢٩٣
٢- راجع سكينة بنت الحسين د . بنت الشاطىء ص ١٤٠
٣- عمر بن أبى ربيعة د . جبور ص ٥٣٨

البيت المدنيّ المُحكم أو المُحاط بجَلَبة أو زحام !

إلا أنه أبدع فى رسم صورة هذه الفتاة التى تسكن تلك الخيمة فهى حضرية مرفهة ، وإذا بدا من وصفه للطلول أنها تتبدى أو تسكن الخيام أحيانا فهى منعمة ، لا ترعى البهائم ، ولا تعرض وجهها للسمائم ولا هى ثرثارة تكثر الحديث :

مَعَاصِمُ لمْ تضْرِبْ عَلَى الْبَهم بالضُّحىٰ   عَصَاها ووجْهٌ لمْ تَلُحْه السَّمائِمُ (١)

لا يُكْثِرْنَ فى الْحَـديث ولاَ يَتْـ   ـبَعْـنَ يَبْغِينَ بالْبِهَامِ الظِّرَابَا (٢)

- إن فتاته لا تعمل فى بيتها بل لها من يقوم بأعمال بيتها سواء أكان ذلك البيت خيمة أو منزلا من دور الحضر ، وهى تعيش فى غُرفةٍ عاليةٍ تحيط بمنزلها الحدائق الخضر :

وأعْجَبَها من عَيْشِها ظِلُّ غُرْفةٍ   وَرَيَّانُ مُلْتَفُّ الحدائـقِ أخْضَـرُ

وَوَالٍ كَفَاها كُلَّ شىءٍ يَهُمُّهـا   فليستْ لشىءٍ آخرَ الليلِ تَسْهَرُ (٣)

فالطبقة الاجتماعية التى تعيش فيها صواحبه طبقة أرستقراطية مرفَّهة لا تعرف البؤس ، وصواحبه لا يختلط عيشهن بشقاء فهنّ :

نَوَاعِمُ لمْ يُخَالِطْهُـنَّ بـؤسٌ   ولم يُخْلَـطْ بِنِعْـمَتِهِنَّ هَـونُ (٤)

وهنّ :

١- ديوانه : ٢٠٨
٢- ديوانه : ٤١١
٣- ديوانه : ٩٥
٤- ديوانه : ٢٧٩

عَقَائِلُ لَمْ يَعِشْنَ بعيشِ بُـؤْسٍ ولكنْ بالْغَضَـارةِ و النَّعِيـمِ (١)

- وفتاته تجمع بين النعيم والمجد والحسب :

يا ابنةَ الخيرِ والسَّناء وفرع الْـ ـمجْـدِ والمنصِبِ الرَّفيـعِ أثِيبى
فإليكِ انتهتْ فـروعُ قريـشٍ بمساعي العُلىٰ وطيبِ النَّسِيبِ (٢)

❋❋

- ولا تقف مقدرة عمر القصصية عند تصوير واقعه الاجتماعى فحسب بل يتجاوزه إلى أن يفيد من الأساطير التى شاعت عن الحب على أنها أيضا من واقع حياته فيتحدث عن خَدَر الرجل :

إذا خَدَرتْ رِجْلى أبوحُ بذكْرِها ليذهب عن رِجْلِى الخدورُ فيذهبُ (٣)

كما يتحدث عن خَلَجةِ العين ولا سيما اليُمنىٰ فهى تبشِّر برؤية الحـبيب : (٤)

إذا خَلجَتْ عينى أقولُ لعلَّها لرؤيتِها تَهْتَاجُ عينى وتَضْرِبُ (٥)

وهى أيضا تختلج عينها فتتفاءل :

فقالت لأترابٍ:لها أبْرُزْنَ إننى أَظنُّ أَبَا الخطَّابِ مِنَّا بِمحْضَـرِ

١- ديوانه : ٢٢٤
٢- ديوانه : ٤٢٩
٣- الموشح للمرزبانى ص ٣٦٢
٤- وهى عادة مازالت موجودة فى بعض ريف مصر يقولون : عينى رفت ثم يتبعونها بقولهم : « اللهم اجعله خيرا »
٥- ديوانه : ٣٧٠

له اخْتَلَجتْ عَيْنى أظنُّ عَشِيةً   وأقبلَ ظبىٌ سانح كالمُبَشِّرِ (١)

***

٣ - البيئـة المكانيـة :

حديث عمر عن الأمكنة حديث مرتبطٌ إليها بحادث ، متَّصلٌ إليها بسبب ، وليست شيئًا لصيقًا بالعمل أو دخيلا عليه ، وانما هى جزء أصيل من الحكاية أو الموقف أو الذكرى (٢)

فقد كان لعمر أماكن خاصة لمغامراته ، مثلما كانت له أزمان خاصة ، فهذا مجلس خاص يقضى فيه أوطاره ، متلذذًا متنعما فيه :

ومجْلسٍ ليلةَ الخميسِ لدى الْـ   ـخَيْمَاتِ بينَ التِّلاعِ والحِصْنِ

وليلةَ السَّبتِ إذ رأيتِ لنَـا   بالوُدِّ ، والدَّمعُ منكِ فى سَنَنِ (٣)

- وهناك مكان كبير عام لعمر يشمل العراق والحجاز ونجد .. ذلك هو مكة المكرمة حيث اجتماع الحجيج ! فهناك بين الحشود المحتشدة والضوامر القادمة ، ترى صاحبنا متحركا ! ، تارةً يعترض النساء حين القدوم ، وثانيةً يتعرض لهن أثناء الطواف ، وثالثةً يتْبعهن إلى بِلدانهن لعلَّه ينال منهن شيئا .. !

- إن بطل القصة فى هذا المكان الكبير لا يعمل شيئًا غير حديثٍ يتجاذبه أو قصيدة يُسمعها إياها أو نظرة يتبادلها . !

- إن هذا المكان الكبير هو مسرحه الواسع الذى ضَمَّ الفاتنات من نجد

١- ديوانه : ١٠٧

٢- راجع تطور الغزل ص ٥١١

٣- ديوانه : ٢٩٩

إلى جبال عسير ! ، ولم يتوقف عند هذا الحد بل كان مسرحه مزرعة للجمال يتبعه أينما رحل ! .. لقد وسع ما بين الشام واليمن :

أيّها المُنكح الثّريا سُهيلا عمركَ اللهَ كيفَ يلتقيـــانِ ؟
هي شاميةٌ إذا ما استقلّتْ وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِى (١)

***

- وللمكان أثر بارز فى شعر عمر أو قصته ، فكثيرًا ما وقف على المكان حائرا يتأمله ويندبه .. إن له فى قلبه ذكرى لا تُنسى ، وقد تكفف لها دمعـــه :

أعَرفتَ يومَ لِوَى سُوَيْقَةَ دَارَا هاجتْ عليكَ رسُومُها استعبَارَا ؟
وذكرتَ هندًا فاشتكيتَ صبابةً لولا تُكفْكِفُ دمعَ عَيْنكَ مَــارَا (٢)

- وهذا مكان آخر يستوقفه :

لِمَنْ دِمَنٌ بخَيفِ منىً قُفُــورُ كأن عِراصَ مَغْنَاها الزّبُــورُ
منازلُ أقفرتْ من أمّ عمــرو ولو طالَ الليالى والدّهــورُ
فلا ينسى فؤادُك أمَّ عمــروٍ ولو طال الليالى والشّهــورُ (٣)

- ولعمرَ مكان ثالث يرعى فيه حبَّه ذلك هو منزل الحبيبة . نراه دائما يقصده ، ويقف عليه ، وهو مُولع بتصويره .

---

١ - الكامل فى اللغة والأدب للمبرد جـ١ / ١٣٧
٢- ديوانه : ١٤٣
٣- ديوانه : ١٦٣

إنه فى هذا المكان يضرب المواعيد مع الحبيبة عند وجودها : (١)

فَبعثْنا مُجرِّباً ساكنَ الرِّيــح   خفيفاً معاوداً بَيْطــــارا
فأتاها ، فقال : ميعادك السِّر   حُ إذا الليلُ سدَّل الأستَارا

- وهناك فى هذا المكان يبكى آثارها إذا ارتحلت : (٢)

وَقفْتُ فى رسْمِها أســائِلُه   والدَّمعُ مثلُ الجُمانِ منْحَدِرُ !

بل ربما يبكى أياماً بذاتها : (٣)

ياليلةَ السَّبتِ قد زوَّدتِنى سَقَماً   حتَّى المَماتِ وهماً صَدَّعَ الكَبِدَا

- إذن فلهذا المكان (بيت الحبيبة) مكانة خاصة ، تدفعه لأن يصفه وصفا لا يخلو من طرافة إذا علمنا موقعه بين الوديان والجبال :

لم تر العينُ للثُّريا شبيهــا   بمسيلِ التــلاعِ لمَّا الْتقَيْنَــا
أعملتْ طرْفَهَــا إلىَّ وقالتْ   حُبَّ بالسَّائرين زوراً إليْنَــا (٤)

- وقد يكرر عمر لقاءه بالحبيبة فى مكان واحد ، ويتعدد فيه المشاهد :

إلى الشَّرْىِ من وادِى المغمَّسِ بدَّلَتْ   معالِمُه وبْلاً ونكباءَ زَعْزَعَا (٥)

١- ديوانه : ١٣٨ - ١٣٩
٢- ديوانه : ١٤٢
٣- ديوانه : ٣١٩
٤- ديوانه : ٣٠٤
٥- ديوانه : ١٧٧

ويقول :

ويومَ الشَّرْى قد هاجتْ دموعًا وُكَّفَ السَّجْم (١)

ويتكرر المشهد :

ولَعَمْرى لحَينُ عُمْرٍ إليهَا يومَ ذي الشَّرى قادَني ودَعاني (٢)

- ويعود فيتذكر :

تذكرتُ بالشَّرى أيَّامَها وأيَّامَنا بكثيبِ الأَمَرْ (٣)

***

٤ - البيئة الزمانية :

للشاعر حرية كبيرة فى تسيير عجلة الزمن أو توقفه ، فهو كمُخْرِج سينمائيٍّ يعرض شريط الأحداث حسبما تكون فى مخيلته ، ووفْق ما يقتضيه الغرض الفنيّ الذى يقصُده ، ففى المأساة تمرُّ الأحداث ببطء شديد وبعكس ذلك يكون زمن المسرة ، وهو فى المسرة أيضا تتفاوت سرعته بتفاوت لذته ..

والزمن فى قصة ابن أبى ربيعة واضح ، أحسَّهُ عمر وارتبط به ، ووَصل بينه وبين أحداثه وذكرياتِهِ بعلاتٍ وثيقة لوَّنتْ مشاهده لقد كان الليلُ أصدق أصدقاءِ عمر ، إذ هو مسرح مغامراتِهِ ، وموعد مؤامراته :

١- ديوانه : ٢٥٧

٢- ديوانه : ٢٨٨

٣- ديوانه : ١٧٦

نَجْعلُ الليلَ موعدًا حين نُمْسِي ثم يُخْفِي حديثَنا الكِتْمانُ (١)

وإذا كان وقت العشاء مقدمة لهوه ، فالصباح خاتمة مطافه :

فما راعَني إلا منادٍ : ترحّلوا وقد لاحَ معروفٌ من الصُّبحِ أشْقَرُ (٢)

- ويبدو بطل القصة لحُوحًا مبالِغًا فى طلبِ المرأة ، لقد أجْهد نفَسه فى السير ليلَ نَهار :

رأتْ رجلاً إذا ما الشّمسُ عارضتْ فَيَضْحَى وأمّا بالعَشِيِّ فيَخْصَرُ (٣)

فأنت تراه لا يَهاب حرارةَ الشمس ولا تُثنيه الفيافى والفَلوات ، يغالب الأخطار ويصارع الأهوال :

وليلةَ ذى دَوْران جشّمنى السُّرى وقد يجْشَم الهولَ المُحبُّ المغرَّرُ (٤)

إنه لا يعبأ بطول السُّرى :

فقد تجشمتُ من طولِ السُّرى تَعَبًا وفى الزيارةِ قد أبلغتُ أعذَارا (٥)

إنّ الليلَ بظلامهِ وسُكونهِ يدفعه دائمًا للقاءِ الحبيب :

فبتُّ رقيبًا للرِّفاقِ على شَفَـــا أحاذرُ منهم من يَطُوفُ وأنْظُـرُ

١- ديوانه : ٢٩٤
٢- ديوانه : ٩٨
٣- ديوانه : ٩٤
٤- ديوانه : ٩٥
٥- ديوانه : ١٢٢

اليهمُ حتى يستمكِنَ النومُ منهمُ ولى مَجلِسٌ - لولا اللُّبانةُ - أوْعَرُ(١)

- فزيارة الحبيبة كثيرًا ما تكونُ بعد أن تهجع الحركة وتنام الناس وربما كان الوقتُ المفضَّل بعد أن يغيب القمر :

فلمَّا فقدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ مصابيحُ شُبَّتْ بالعَشاء وأنْوُرُ

وغابَ قُمير كنتُ أهوى غيوبَه وروَّحَ رعيانٌ ونُوَّم سُمَّرُ (٢)

- ويحكي عن زيارته وقد أرخى الليلُ سدولَه الدَّهماء :

فأتيتُها والليلُ أدْهمُ مُرسَل وعليهِ من سُدَفِ الظَّلام سُتُورُ (٣)

- وهو بعد أن يرشف كأس الأنس والهوى ، يخرج مبكراً قبل أن يستيقظ القوم :

بِتُّ فى نعمةٍ وباتَ وسَادِى مِعْصَمًا بين دُمْلُج وسِوَارِ

ثم إن الصَّباح لاحَ ولاحتْ أنجُمِ الصُّبح مثلَ حزع العَذارىِ (٤)

إنه يحزن إذا رأى نجوم الليل فى انقضاء ، أو لاحتْ أمامه تباشيرُ الضياء :

فلمَّا تَقضَّى الليلُ إلا أقلَّه وكادتْ تَوالِى نجمِه تَتَغوَّرُ

١- ديوانه ٩٥

٢- ديوانه :٩٦

٣- ديوان :١٣٠

٤- ديوانه :١٣٥

أشارتْ بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ   هبوبٌ ولكنْ موعــدٌ منكَ عـــزْوَرُ
فما راعنى إلا منــادٍ ترحّلــوا   وقد لاح معروفٌ من الصُّبحِ أشقرُ (١)

* * *

والظروف الزمانية عند عمر بن أبى ربيعة متشابهة فنراه غالبا ما يختار وقت المغامرة ما بين غيوب القمر إلى الصباح الباكر إن كانت الليلة مقمرة أو من نوم السمار إلى الصباح الباكر إن كانت الليلة مظلمة ، ومن هنا تشابهت عنده حِقبة الزمن ، مما جعل مغامراتِهِ متشابهةً متكررةً - وأرى - فى قصة عمر - أن نغمةَ التكرار الزمنيّ تربط بين حكاياته الشعرية !!

- كما أرىٰ أن المسرح الدائم لمغامراته هو الليـــل !

فهو يقول وقد قطع الصباحُ عليه نعيمــه :

ياليلةٌ قطعَ الصَّباحُ نعيَمها   عُودِى علىَّ فقد أصبتِ صَمِيمِى (٢)

- وتتكرر الحكاية فى قولـه :

لبِثْنا بهِ ليلَ التَّمامِ بِلَـذَّةٍ   نَعِمْنا بهِ حتى جَلَا الصبحَ كَاشِفُ (٣)

ذلك هو وقتُ اللقاء مع الحبيبة .

وهو يحكى فيذكر بعض ليالى الأسبوع ، فيتحدث مثلاً عن ليلةِ السبت :

١- ديوانه : ٩٨

٢- ديوانه : ٢٤٣

٣- ديوانه : ٤٦٥

ليلةَ السَّبتِ إذ نظرتُ إليهَــا نظـرةً زادتِ الْفــؤادَ جُنونَـــا (١)
ياليلةَ السَّبتِ قد زَوَّدتِنى سَقَماً حتى المَماتِ وهمًّا صدَّع الْكبِدَا (٢)

كما يتحدث عن ليلة الخميس :

ومجلسِ ليلةَ الخميسِ لدى الْـ ـخَيْماتِ بينِ التلاعِ والْجِصنِ (٣)

* * *

- أما الأوقاتُ الأخرى - فى القصة - فهى أوقات لقاء لأحاديث الغزل والسَّمر ، والتحية والوداع ، وهذه الأوقات لا تُحد بفترة ، إنما تملأ الليل والنهار ، فهو يتعرض للنساء نهاراً عند الكعبة ، وفى أوقاتِ الصــلاة والإحــرام : !

يقْصَد الناسُ للطوافِ احتِسابًا وذُنُوبى مجموعةٌ فى الطَّوافِ (٤)

- وعلى ذلك يمكننا أن نُقسِّم الوقتَ فى القصة قسمين :

الأول : خاص : بلقاء الحبيبة والمغامرة من أجلها ، وهذا محدد بالليل .

الآخر : عام : وهذا ليس له وقت محدد ، فهو الحدث السريع ، الذى يشمل المغازلة واللقاء ، وتعرضه للنساء ، كما يتسع لأحاديثه الغزلية هنــا وهنــاك .

* * *

١- ديوانه : ٣٠٥

٢- ديوانه : ٣١٩

٣- ديوانه : ٢٩٩

٤- عيون الأخبار م٤ جـ١٠ / ١٠٧

٥ - ملائمة الزمان والمكان :

لقد باعد العلم بين تصور المكان وتصور الزمان ، ولكن نظرية النّسبيةِ الرياضية عادت فقرنتْ بينهما ، وربما كان اقترانهما قريبا فى الواقع من الحس الإنسانى ، فإذا رأينا صورة حقلٍ ما استطعنا أن ندرك الحيّز الذى يشغله فى المكان وفى أىّ فصل من فصول السنة أُخذت صورته بمجرد تأمل ما فيه من أشجار أو زروع .

وكذلك إذا نظرنا إلى إنسان قدَّرنا عمره الزمانى حين ننظر شكلَه المكانى .. فالمكان والزمان أكثر اقترانا وأشدُّ التحاما مما يتصور الفلاسفة .. والشعراء بسبب هذا الاقتران كثيراً ما يستعيرون الصور المكانية للدلالة على الزمان ، وبالعكس قد يستعيرون الألفاظ الدالة على الزمان للتعبير عن المكان (١) فامرؤ القيس مثلا يعْمدُ إلى استعارات مكانية ليدل على طول الليـــل :

وليـلٍ كموجِ البحر أرخىُ ســدولَه   علىَّ بأنــواعِ الهمـــومِ ليبتلى

فقلتُ له : لَـا تمطَّى بجــوْزهِ   وأردَف أعجازاً ونـاء بكلكل (٢)

الا أيُّها الليلُ الطويلُ ألَاَ انْجلى   بصبحٍ وما الإصباحُ فيك بأمثلِ (٣)

ولنتأمل المقابلةَ بين ليل امرىء القيس و ليلِ ابن أبى ربيعة :

١- راجع دراسات فنية فى الأدب العربى عبد الكريم اليافى ص ٢٥٠

٢- بجوزه : بوسطه ، ناء بكلكل : نهض بصدره وفى الكلام تقديم وتأخير والمعنى : ناء بكلكل وأرداف اعجازا

٣- ديوان امرؤ القيس ص ١٨

فيالكَ من ليلٍ تقاصرَ طولُه وما كانَ ليلى قبلَ ذلك يقْصُرُ (١)

وهكذا ينطلق عمر فى نهجه - وقد أفاد من أساليب السابقين - فتجىء أحداث قصته ملائمة للزمان والمكان اللذين نمتْ فيهما - فالزمان الذى نسجت فيه القصة : ملائم لامتلاءِ عواطفه ، وهذا الاختيار الموفق كان عنصرًا أساسيًا لدفع أحداث قصته .

والباحث يرى بوضوح :

ملائمة الزمن مع الحدث فى قوله :

وغابَ قمَير كنتُ أهوى غيوبَه وروّح رُعيانٌ ونُوّم سُمَّرُ (٢)

وفى قوله :

فأتيتُها والليلُ أدهمُ مُرسَل وعليهِ من سُدَفِ الظّلامِ سُتورُ (٣)

وفى قوله :

فلهونا الليلَ حتى هَجَم الصبحُ هُجومَا

قلتُ قد نادى المنادى وبدا الصبحُ فقومَا (٤)

وفى قوله :

قالتْ لهنَّ:الليلُ أخفىُ لِلّذِى تَهْوَيْنَ مِنْ ذَا الزّائِرِ المُنْتَابِ (٥)

- أقول : إن المتأمل فى هذه القصائد وأمثالها يجد أن زمان القصة

---

١ - ديوانه ص ٩٧
٢- ديوانه : ٩٦
٣- ديوانه : ١٣٠
٤- ديوانه : ٢٤٩
٥- ديوانه : ٤١٥

الأساسيّ هو الليلُ ، والليل هادىء ساكن تتشابك فيه نجوم السماء ، معلنة عن حب شاعرنا ، وقد نام القوم فلم يعد يخشى عدوا ! فالليل إذن : زمن مناسب لطبيعة هذه الأحداث التى قد نمتْ فى سواده ، كما وجد صاحبنا فى غفلة العيون ، وإطفاءِ المصابيح ونوم السمر المتنفَّسَ لحركاته المتكررة فى القصة .

- ومن هذا المنطلق يتمنى الشاعر أن يكون ليلُه شهرا :

ليتَ هـذا الليـلَ شهـرٌ　　　لا نَـرىٰ فيـه عَرِيْبـَـا (١)

- بل إن الصبح - على مابه من جمال - مبعث الحزن والأسى ، ففيه الحركة المضادة ، والضوضاء المشوش وانتشار الرقباء من حوله ، حينئذ تقطع اللذة وينتهى اللقاء .

ياليلةً قطعَ الصَّباحُ نَعِيمَهـا　　　عُودِي علىَّ فقدْ أصبتِ صَمِيمِى (٢)

- ومشهد آخر لانتهاء اللقاء :

لبِثْنَا به ليلَ التَّمامِ بلـــذَّةٍ　　　نَعِمْنَا به حتى جلَا الصُّبحَ كاشِفُ (٣)

- إن حزنه يتكرر دائما إذا لاح ضوء الشمس :

فقامتْ فقلتُ:بـدتْ صـورةٌ　　　من الشمس شَيَّعَهـا الأسْـعُدُ (٤)

وهو عند انتهاء اللقاء يحدد مكانا آخر للقاء :

١- ديوانه :٤٣٩
٢- ديوانه :٢٤٣
٣- ديوانه :٤٦٥
٤- ديوانه :٣٦٠

أشارتْ بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ ... هبوبٌ ولكنْ موعدٌ منكَ عَزْوَرُ (١)

أو يحدد زمانًا آخر للقاء :

ثم انصرفتْ وكان آخِرُ قولِهـا ... أنْ سوفَ يجْمَعُنَا إليكَ الْمَوسِمُ (٢)

- وأما المكان : فكثيراً ما كان سببًا لهياج عواطفه ، وقد عرضنا لموقفه واضطراره إلى الذهاب إلى" لحج وأبين" باليمن مخافةَ أن يهيِّجه مقامُه بمكة على قول الشعر فى صاحبته (الثّريا) ولكن ما كاد يستقر حتى عاودته ذكرى الثريا ومواسم الحج واللهو فى الحجاز وراح يحكى ذكرياتِه وينسج قصة حنينِه :

بل ما نسيتُ ببطنِ الْخَيْفِ موقِفَها ... وموقفِى وكِلانَا ثَـمَّ ذُو شَجَـنِ

وقولَها للثُّريـا يوم ذى خُشُـبٍ ... والدّمعُ منها على الخدَّينِ ذُو سَنَنِ

باللهِ قُولى له فى غير مَعْتَبَـةٍ ... ماذا أردتَ بطـولِ الْمُكثِ فى يَمَنِ

إن كنتَ حاولتَ دُنْيا أو نَعِمتَ بها ... فما أخذتَ بتَرْكِ الحـجِّ مِن ثَمَـنِ

فلو شَهِدنَ غداةَ الْبَينِ عَبْرتَنَـا ... لأنْ تَغَـرَّد قُمْـرِىٌّ على فَنَـنِ

لا سْتَيقَنتْ غيرَ ما ظنتْ بصاحِبِها ... وأيقنتْ أن عَكًّا لَيس مِن وَطَنِى (٣)

والمكان الذى يُهيِّج عاطفةَ الحب لا يغفل أثره على نسج القصة

١- ديوانه : ٩٨

٢- ديوانه : ٢٢٧

٣- الديوان ص ٢٨٤ - ٢٨٥

الغزلية - كما لا يغفل أثر البيئة الواضح فى اختيار الألفاظ السهلة والحضارية - مما ضمن الملائمة التامة بين عناصر البيئة المذكورة -

وهكذا وعى ابن أبى ربيعة البيئة وعيًا مناسبًا فلائم بين أنواعها وتفاعل مع شخصياتها واستمدتْ قصته روْعَتها من صدقِ التصوير والتعبير عن تلك البيئة الحضارية -

* * *

الفصل الرابع

طرق التعبير والبناء الشكلى

أولا : طريقة الأداء ·

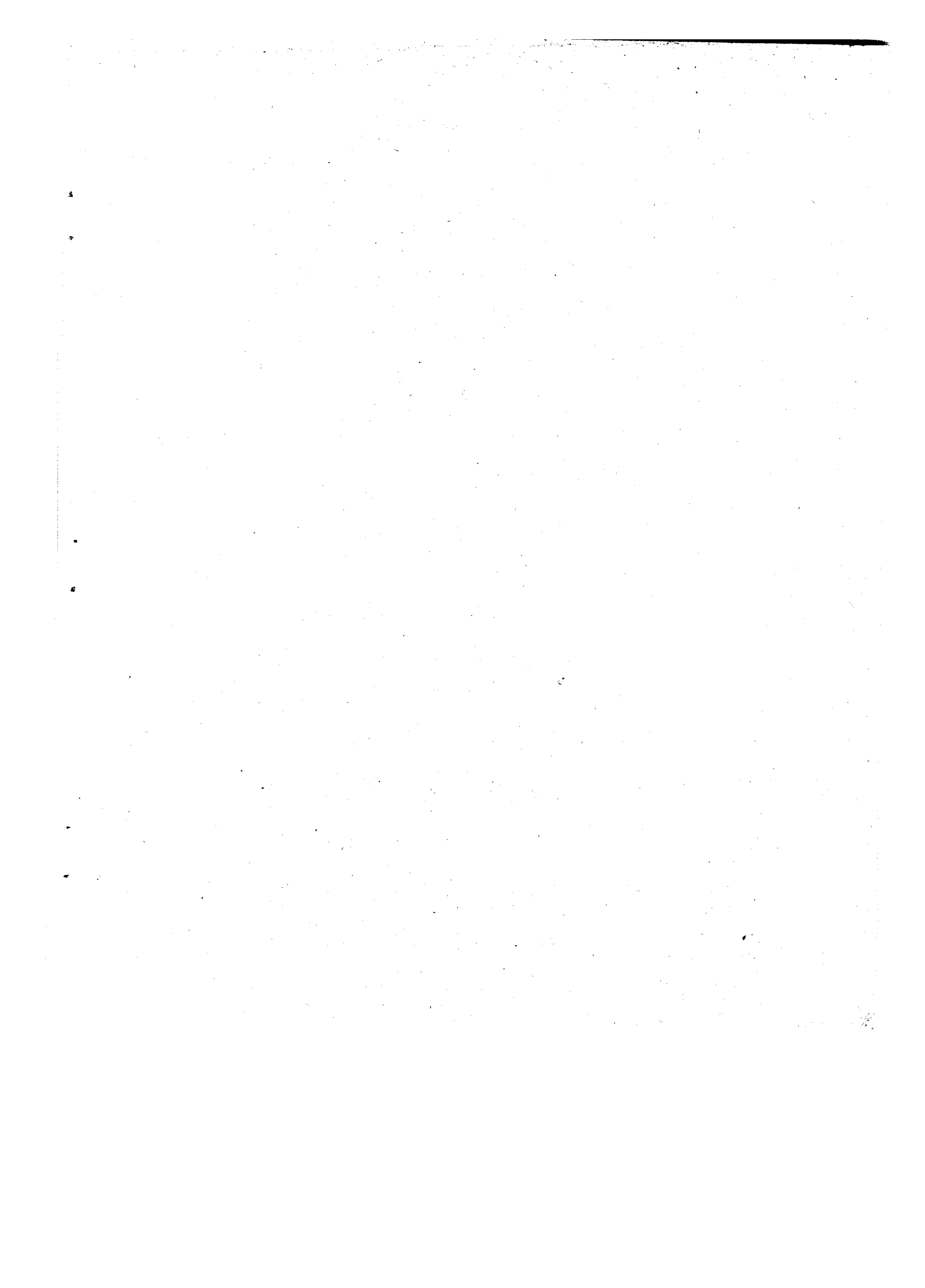
ثانيا : الحوار والحبكة القصصية ·

ثالثا : السرد والخدعة القصصية ·

رابعاً : حكايات العتب وأساليب الاعتذار ·

- القسم

- المثل والحكمة



أولا : طريقـــــــة الأداء

يُعنى بطريقة الأداء :

(الأسلوب الذى يستطيع به الكاتب أن يصطنع الوسائل التى بين يديه لتحقيق أهدافه الفنية ، والوسائل التى يمتلكها الكاتب فى هذا الصدد : الشخصيات والحوادث والبيئة ، وتأتى بعد ذلك الخطوة الأخيرة وهى جمع هذه الوسائل فى عمل فنىّ كامل) (١)

إذن فطريقة الأداء هى : طريقة المعالجة التى يعتمدها الأديب لنقل ما فى نفسه من معانٍ فى عبارات لغوية ، أو المنوال الذى ينسج فيه التراكيب وبه تتضح السمات الأسلوبية التى يتجلى طابعها على الأديب فى منهجـــــه .

وبالطبع يختلف أسلوب القصة عن أسلوب البحوث العلمية والمقالات أو الأجناس الأدبية الأخرى .

- وشاعرنا قد تناول فى قصته أساليبَ متنوعة فى الأداء ، بصدقِ دلالةٍ على ما يجولُ بخاطره وما يحدث فى واقعه عن قرب ، وقد رزق من الموهبة الشعرية والإمكانات اللغوية ما جعله يأخذ الأشياء كما تجرى فى نفسه ، فيضعها أمام القارىء صورةً ناطقة ، واقعية واضحة وضوحا تقتضيه طبيعة العمل القصصى .

* * *

١- راجع فن القصة - محمد يوسف نجم ص ١١٣

- ولعل مردّ هذا الوضوح - عند عمر - يعود إلى طبيعته الفنية والنفسية : أما طبيعته الفنية ، فتتمثل فى واقعيته القريبة التى لا تَخْرج عمّا حولها ولا تتعمقه ، وأما طبيعته النفسية فذلك أن عمر ليس هذا الإنسان الذى تُثقله اهتماماته أو يَرْزح تحت أعبائها .. ومعنى هذا أن نفسية عمر كانت قد خَلُصت لهذا اللهو ، فانعكس ذلك على نتاجه الفنى فجاء واضحا (١)

وقد اضطره هذا الاتجاه الجديد فى غزله - اتجاه القصص - إلى أن يَدخل بِنا فى تخيلاتٍ كعادةِ القصاصين ، فهم يُخرجوننا من عالَمِنا إلى عالم ملىء بتخيلاتهم ومن هنا يكون من المبالغة أن نسمى بعض شعره غزلاً ماديا ، فلا مادية فيه ، إنما فيه القصة وخيال القصاص . ولعل هذا غاب عن القدماء فقد اضطربوا فى عمر أعفيف هو أم غير عفيف ، ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيرا من شعره .. وكأنه عرف أن عمر إنما يقص ويحاول أن يبرز - كعادة القصاصين - العناصر العاطفية فى المجتمع .(٢)

* * *

- وعمر قد صنع ألوانًا من الكلام يكنى به عن اسم حبيبته حتى لا تكون مضغة فى أفواه المغرضين ، وهو حتى فى مواقفه الصريحة والتى توحى بالمكاشفة لم يسم اسم واحدة بعينها ، (ونحن الآن لا نعلم من هى نعم هذه التى شغلتْ حيزًا كبيرًا فى قصةِ حبه والتى يقال : " إنها نزلت

١- راجع تطور الغزل ص ٤٥٢

٢- الشعر والغناء د . شوقى ضيف ص ٢٦٥

على غدير وارتحلت فنزله عمر وظل يرد منه حتى نشف ! ومع هذا فهو عفيف فى لفظه ، وليس فى شعره كلمة بذيئة . (١)

***

- وطبيعة الاتجاه القصصى فى شعره تدعوه لأن يستخدم اللغة المألوفة (ولعله أراد أن يدور شعره على ألسنة المغنين) ومن أجل هذا كله كان يطلب الأوزان الخفيفة ، وقلما نجده يميل إلى الأوزان الطويلة المعقدة ، وأكثر من هذا راح يجزء فى البحور الخفيفة نفسها كمجزوء الوافر فى قوله :

تَبِعتهمُ بطرفِ الْعيـْ ... ـنِ حتى قِيل لى افتضَحا
يودّع بعضنا بعضًا ... وكلٌّ بالهوىٰ جَرِحا (٢)

***

فشاعرنا مصور ماهر ينشد الصورة الجميلة ويلتقط كل ما هو فاتن جذّاب ليُشبِع هوىً نفسه ويمتع دقيق حسه ، وكما أن المصور يرسم لنا صورة فى الحسن فكذلك يصنع عمر !

- إن عمر قد تميز بطريقة أداءٍ فنىّ هى أروع ما يمكن أن يسند إليه وذلك : " بأن جعل القصيدة وحدةً كاملة وإلى وصلِ البيت الواحد بالبيت الآخر فى بعض الأحيان بحيث تصبح الرابطة محكمة ، وبحيث يصبح من العسير أن تقدم أو أن تحذف بيتا من القصيد " ، لقد سمعنا من كثيرين أن الشعر العربى قبل ابن الرومى خلا من هذه الوحدة .

١- راجع المقتطف م ٩١ جـ ١ / ٤٤ - ٤٥
٢- راجع الشعر والغناء ص ٢٦٦ ، ٢٦٧

وأن الوحدة فى الشعر العربى هى البيت بينما هى فى الشعر الافرنجى القصيد كله ، فليسمح لى القارىء أن أنبه إلى أن شعر عمر يخالف هذا الزعم ولعل عمر قد تعمد هذا الأمر تعمدا فى قولـه : (١)

ياذا الذّى فى الحب يَلْحَى أما	تَخْشَى عقـابَ الله فيَنا أمـا
تعلمُ أن الحبَّ داءٌ أمــا	والله لـو حُـمِّلْتَ منه كمـا
حُمِّلتُ من حـبِ رخيـمٍ لمـا	لُمْتَ على الحبِّ ! فَدَعْنى وَمَا
أطلب: إنى لسْتَ أدْرى بمـا	قُتِلْتُ إلا أنَّنى بَيْنَمَـا
أنا بباب القَصْرِ فى بعضِ مـا	أطلبُ من قَصْرِهمُ إذ رَمَى
شِبْهُ غَزالٍ بسـهام فمـا	أخْطَأ سهْمَاهُ ولكنَّمـا
عَيْنَاه سهمانِ كُلَّمَـا	أراد قتلى بِهِمـا سَلَّمـا

فعمر قد قَيَّد نفسَه فى هذه القصيدة بالقافية الواحدة فى صدور الأبيات وأعجازها ويكاد هذا وحده يشير إلى أن عمر قد تعمد الأمر تعمدا ليضع فنا جديدا .....

* * *

١- راجع المقتطف م ٩١ جـ ١ / ٤٥ والديوان ص ٥٠٠

ثانيا : الحـــوار والحبكـــة القصصيـــة

الحوار هو الكلام الذى تفرضه المواقف والأحداث لدى التقاء شخصين أو اكثر يُضيئون به جوانب من سير الأحداث وقد عرف الحوار فى الشعر العربى منذ امرىء القيس ، لكن عمر قصد إليه قصدا فوشّحه وعمّمه فى أكثر قصائده فأضفى على شعره القصصى كثيرا من الحيوية ، وجعله ينبض بالحركة على لسان شخوصه التى تتحرك وتنطق وتشترك فى عواطف الحب الذى يصفه ، ويبدو هذا الاشتراك واضحًا حين يصف حبَّ فتياته له ووجدهن به وتشوقهن لرؤيته .. ولنتأمل هذا الحوار وقد لاح خيالُ البطلِ قريبًا من خِبـاء حبيبتـــه !

- الحبيبة تخاطب مَنْ حولها من الأتراب :

قِفى أسماء هل تعرفينَــه ؟ أهذا المغيرىّ الذى كان يُذكر ؟

- الأتراب :

أهذا الذى أطريتِ نعتًا فلم أكنْ وعيشك أنساه إلى يوم أُقبرُ ؟

- الحبيبة : تجيب مشفقةً عليه :

فقالتْ : نعم : لا شكَّ غيّرَ لونَه سُرىُ اللّيلِ يُحيى نصَّه والتَّهجُّرُ

ويتربصُ عمرُ حتى تغفلَ العيون ثم يتسلل فى هدوء إلى خبائها وفجأة يُلقى التحيـــة :

- عمر :

فحييتُ إذْ فاجأتُها فتولّهــتْ وكادتْ بمكنونِ التحيَّةِ تَجْهَـرُ !

- الحبيبة : بفرحة وتعجب :

وقالتْ : وعضّتْ بالبَنانِ فضَحْتَني وأنتَ امرؤٌ ميسورُ أمرِك أعسرُ

- عمر : معتذرا :

فقلتُ لها : بل قادني الشّوقُ والهوى إليكِ وما عينٌ من النّاسِ تنظرُ

- الحبيبة : بعدما هدأ روعها :

فقالتْ وقد لانتْ وأفرخَ روْعُها كَلاكَ بحفظٍ ربُّك المُتكبّـر

ويستمر الحوار طويلا ، بيد أن الوقت يمر سريعًا فلا يدرى البطل إلا وهو فى أزمة شديدة ، فقد لاح الصباح ، ولن يستطيع الخروج !

- الحبيبة :

أشارتْ بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ هبوبٌ ولكنْ موعدٌ لكَ عَزْورُ

- عمر :

فقلتُ : أُبادِيهم فإما أفوتُهــم وإمّا يَنالُ السيفُ ثأرًا فيثْــأرُ

- الحبيبة : رافضة الحل :

فقالتْ : أتحقيقًا لما قال كاشِحٌ علينا وتصديقًا لما كان يُؤثَــر

- وتقوم الحبيبة تَلْتمس حلا يستُرها فتذهب إلى أختيها ، وينتقل الحوار إلى موقف جديد تخاطب فيه أختيها :

- الحبيبة :

فقالتْ لأختيها : أَعينَا على فتىً أتى زائرًا والأمرُ للأمرِ يُقْدَرُ

- هما : فى دهشة :

فأقْبلتا فارتَاعَتا ثم قَالتَــا : أقلّى عليكِ اللومَ فالخطبُ أيسَرُ

- إحداهما : تأتى بالحلّ :

فقالت لها الصُّغرى : سأُعطيه مِطْرفى .. ودرعى وهذا البُرْدُ إن كان يحْذَرُ

يقـوم فيمشي بيننـا متنكـرًا   فلا سرُّنا يفشـو ولا هو يظهـر

- ويخرج عمر سالما ، ولا يفوتهن أن يعذلنه وينصحنه :

وقلنَ : أهذا دأبُك الدّهر ســادراً ؟
أما تستحى أو ترعوى أو تفكـر ؟
إذا جئتَ ما منحٌ طرفَ عينيكَ غيرَنا
لكى يحسَبوا أن الهوى حيثُ تنظرُ !

- فالحوار يعكس طبيعةَ الأنثى ، وروح المرأة الحجازية وأسلوبَ كلامها كما تزيّنُ الحوارَ بعضُ التعبيراتِ القرشية اللطيفة ، وكأنها فى نعومتها وحدتْ لتخاطب بها السيدات ، وذلك من مثل قولها : " أريتك إذ هُنّا عليك .. ألم تَخَف ؟ ! .. وقيتَ ! .. كلاكَ بحفظِ ربُّكَ المتكبّرُ. "

<u>الحبكة القصصية</u> : لعل أبسط تعريف لها : نسيج فنى يُهَيِّءُ مقدمةً تبتدئ منها القصة ثم يحرك الأحداث ويطورها بجعلها تشتبك وتتأزم ثم يتدرج بها إلى الانفراج والحل ، وطرائق بنائها ثلاث : (١)

<u>الأولى</u> : الطريقة التقليدية : وفيها يسير العمل بتسلسل سببى أو زمنى من البداية إلى الوسط ثم النهاية (٢)

<u>الثانية</u> : الطريقة الحديثة : وهى تنطلق من الوسط من أزمة تطبق على البطل وتمزق روحه ، فينفصل عن الواقع وينفجر اللاوعى لديه

---

١ - راجع نصوص ودراسات أدبية منشورات جامعة صنعاء ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

٢- كما فى رواية " عودة الروح " لتوفيق الحكيم و " بعد الغروب " لمحمد عبد الحليم عبد الله و " زقاق المدق " لنجيب محفوظ .

بالذكريات والأحلام والتداعيات فتأتى عبرها البداية تفسر الأزمة وتدفعها إلى النهاية (١)

<u>الثالثة</u> : وهى مقتبسة من السينما وتسمى " الخطف خَلْفًا " تنطلق من النهاية من موقف مثير كجريمة ترتكب .. ثم تعود القصة تعرض الظروف والأحداث التى أدَّت إلى الجريمة (٢)

- ونلمس نوعا من الحبكة القصصية فى حوار ابن أبى ربيعة مع حبيبته وقد سلك فيه الطريقة التقليدية الأولى حيث بدأ بتسلله إلى خبائها ثم فاجأها ينساب انسيابا فى زمن يناسب طبيعة المغامرة ثم تتحرك الأحداث إلى أن تتأزم ببزوغ الفجر وإيقاظ الأهل ثم تتدرج الأحداث وتنمو الأشخاص إلى أن تنتهى الأزمة بالانفراج والحل .

***

والملاحظ فى القصة - عند عمر - أنها تفتقد إلى التطوير الدرامىّ ومرجع ذلك إلى سرعة عرض الحدث ومرور الزمن بانقضاء الليل - مع اللذة حتى المفاجأة التى تتمثل فى ظهور الصباح غالبا - وهذه السرعة لا تُهيىء فرصة للتطوير الدرامى ، وإذا كانت الدراما عنصرًا هاما من عناصر القصة الحديثة فإن روح الدراما إنما تكون فى الصراع أيا كان نوعه ، وفى قصة عمر نوع من الصراع الدرامىّ تمثّل فى العقدة ونوع من الحبكة ، كما تمثل فى الصراع بين أشخاص قصتـــه !

١- كما فى رواية " ثرثرة فوق النيل " لنجيب محفوظ و " أقصوصة ثلج آخر الليل " لزكريا تامر

٢- وقد استخدمها نجيب محفوظ فى قصته النفسية " السراب " واستخدمها يوسف السباعى فى روايته " نحن لا نزرع الشوك "

- وفى مشهد آخر : دار حوار بينه وبين صديق أغراه برؤية نساء غاية فى جمال يستصبيه فهيج منه مضجعه :

عمر لصديقه : (١)

فقلتَ لمُطريهنَّ بالحسنِ إنمَّــا ضررتَ فهل تستطيعُ نفعًا فتَنْفَعَــا ؟
وهَيَّجتَ قلباً كانَ قد ودّعَ الصِّبا وأشياعَه فاشفعْ عسىٰ أن تُشَفَّعـا

- ثم يشير عليه أن يتنكر فى زيّ أعرابى ، ويضع اللثام على وجهه خوف الرقبــاء :

الصديق :

فقال تعال انظر فقلت وكيف بى أخاف مقاما أن يشيع فيشنعا
فقال اكتفل ثم التثم فأْتِ باغيا فسلّم ولا تكثر بأن تتورعــا

- ويظل الحوار وتشيع بينهما همسات النجوى ، ويركب عمر بعيره متنكرا فى هيئة أعرابى عابر سبيل :

فأقبلتُ أهوى مثْلمَا قال صاحبى لموعدهِ أُزجى قعودًا مُوقَّعا

إلى أن يقف عمر عند نساء أبىٰ عليها الجمال اتخاذَ القناعِ ، فتظاهرْن بتجاهلــه :

عمر :

فلما تَوَاقفْنَا وسلّمت أشرقَتْ وجوهٌ زَهَاها الحسنُ أنْ تَتَقَنَّعَا

- والعقدة أو الذروة هنا غيرُ مفْتعلة والاتجاه القصصى الآن يتحاشى

١- الديوان : ١٧٨ - ١٧٩

إبراز الذروة أو العقد على صورة مفتعله ، وبحسب الكاتب أن يقدم لقارئه صورة صادقة للحياة الإنسانية بما يضطرب فيها من أحداث وما يتقلب على سطحها من شخصيات وان أول ما يطلبه القارىء الذوّاقة أن يكون تطور القصة طبيعيًّا لا يخرج عن نطاق المعقول) (١)

النســوة :

تَبالَهْن بالعِرْفَانِ لمَّا عرفْنَنى — وقُلْن : امروءٌ باغ أكلَّ وأوْضعا (٢)

ـ وقد مثّل تجاهلُ النسوة له نوعاً من الأزْمةِ ، ولكن سرعان ما تكشّفت بمفاجأة : إن النسوة هى التى دبرن هذا اللقاء وقد أرسلن إليه صديقا قام بمهمة الرسول ليأتى به إلى هذا المكان الخالى الذى يطيب فيه الجلوس لحسن منظره وليــن أرضـــه :

النســوة : تعْتَرِفْنَ بالمفاجـــأة :

فلما تنازَعْنا الأحاديثَ قُلْن لى: — أخِفْتَ علينا أن نُغرَّ ونُخْدَعا ؟

فبالأمسِ أرْسلنا بذلكَ خالـداً — إليك وبيّنا له الشأنَ أجْمَعَــا

فما جئنا إلا على وفق موعـدٍ — على ملأ منّا خرجْنا له معــا

رأينا خلاءً من عُيُونٍ ومجْلساً — دَميثَ الرُّبا سَهْلَ المحلّةِ مُمْرِعا

وقلن كريـمٌ نال وصْل كَرائـم — فحُقَّ له فى اليومِ أنْ يَتَمتَّعا ! (٣)

ـ هكذا تستمرُّ الأحداث متصلةً متسلْسِلةً فى حوارٍ وحركة دائبة إلى أن

١- راجع فن القصة . يوسف نجم ص ٤٣ ، ٤٨

٢- أكل : أصاب ناقته الكلال ، وقد لاحظ العنانى شارح ديوانه أن الصواب هو أن يقول : اوضع فأكل

٣- ديوانه : ١٧٩

أن يتم اللقاء والمجلس الذى ظفر به والمفاجأة التى انسابت أحداثها فى مرح ووداعة بعد تمهيد للقصة ووصف لمسرح الحادثه بتلك الصحراء. ونلمس أيضا نوعا من الحبكة التقليدية بأجزائها الثلاثة تمثَّلتْ المقدمة فى: إغراء الصديق والتمهيد للقاء وتمثَّلت الأزمة فى: تجاهل النسوة له وما تبع ذلك من قلق وتحايل منه على مواصلة اللقاء ثم النهاية فى: مفاجأة النسوة له، فهن اللائى دبَّرن أمرَ اللقاء.

- فلم يكن كلامه أكبرَ منهم ولا فوقَ تفكيرهم، وهذا ما جَعلَنَا نساير الحوار دون أن نشعر بفارق لغوى أو فكرى بين أشخاصه، هنا تكْمُن أهميةُ الحوار السَّلس المتقن الذى يرسم الشخصيات ويبعث على التشويق والحياة!

***

- **وقد يقول قائل**: إن شيئًا من حوار كان فى الشعر الجاهلى، نعم، ولكن الفرق كبير بين ما نلمح عند الجاهليين، فعمر قد خرج به عن أن يكون لمحة خاطفة تردُ عرضًا فى شعر شاعر إلى أن يكون مذهبا فى التعبير، وعمر لم يجعل هذا الحوارَ ضيِّق النطاق ولم يقتصر فيه على أن يكون بين الشاعر وصاحبته بل وسع مداه، وزاد فى شخوصه: فجعل الحوار بينه وبينها، وبينها وبين أترابها، وبينه وبينهن، وبينه وبين العاذلين وبينه وبين الرسل أو الأصدقاء الذين ذكرهم فى سياق حواره من مثـــل:

خالـــد:

فبالأمسِ أرسَلْنَا بذلك خالداً ... إليكَ وبيَّنَا له الشأنَ أجمَعَا (١)

أو مجالد :

يقولُ مُجَالِـدٌ لمَّـا رآني ... يُراجِعُنى الكلامَ فمَا أبيْـنُ (٢)

أو هارون :

قال هارونُ : قِف فياليتَ أنيّ ... كنتُ طاوعتُ ساعةً هارونَا (٣)

أو عمرو :

فَرأىْ سَوَابِقَ عبرةٍ مُهْراقـةٍ ... عمرٌو فقال : بكىْ أبو الخطَّابِ (٤)

أو غيـر ذلك من رسـل وأصدقـاء ..... لقد شمل حواره كل الشخوص فاذا أنت فى مجتمع متكامل ، ومسرح متفاعل كل يؤدى فيه دوره من حبيب ورقيب وحبيبة وأتراب وصديق ورسول وحاسد وعزول ... فى حوار بارع ومقدرة على التنويـــع !

- وهو يجمل حواره بعبارات تفسيرية لطيفة كقوله :

فلما توافقنا وسلّمت أقبلتْ ... وجوهٌ زَهَاها الحُسنُ أنْ تَتقنّعا

وكأنه يقول: إنها وجوه تُدِلُّ بجمالِها فلا تخْتَمِر لتسترَ شيئًا عن الناظر.. !

وقولــه :

قلتُ مَنْ هذا؟ فقالتْ:بعضُ مَنْ ... فتَنَ اللهُ بكـمْ فيمَنْ فتَـنْ

قلت حقًا ذا؟ فقالتْ قولـةً ... أورثتْ فى القلبِ همًّا وشَجَنْ

يَشْهدُ اللهُ علىَ حُبّى لكـمْ ... ودُموعِى شاهدٌ لى و حَزَنْ

---

١ - ديوانه : ١٧٩

٢- ديوانه : ٢٧٨

٣- ديوانه : ٣٠٦

٤- ديوانه : ٤١٤

وقد يكون أسلوبُ الحوار تقريريًا :

وقالتْ : وعَضَّتْ بالبنانِ فَضَحْتَنى   وأنتَ امروٌ ميسورُ أمرِكَ أعْسَرُ

ويكون حواره استفهاما :

أريتك إذ هُنَّا عليك ألم تخفْ   - وُقيت - وحولى من عدوك حُضَّر ؟

ويكون قسمًا أو نفيًا أو تعجبًا أو جوابا :

فو اللهِ ما أدْرى: أتعجيلُ حاجةٍ   سرتْ بكَ أمْ قد نامَ من كنتَ تحْـذَرُ؟

فقلتُ لها : بل قادنى الشوقُ والهوىٰ

إليكِ وما نفـسٌ من النَّاسِ تَشْعُـــرُ

والطريف هنا - كما لا يخفى - أنه يستعمل فى البيت الواحد كثيرًا من فنون الكلام وأساليبه !

- ونلاحظ أن الحوار نوعان :

١ - يكون غير مباشر ، بأن ينقل بطل القصة ما دار بينه وبين حبيبته على لسانه ، وهذا اللون من الحوار يكون بعد انتهاء الموقف ، وانتهاء لذته. وهو إنَّما يُعيده من قبيل الشوق أو التلذذ بالحديث كقوله :

فقالت : فإنا قد بذلنا لك الهوى   فبالطائر الميمون تلقى وتحبر

فقلت لها : إن كنت أهل مـودة   فميعاد ما بينى وبينك عزور (١)

- وهذا اللون من الحوار هو الصفة الغالبة فى قصته .

٢ - وهناك حوار آخر هو ضمن الذى حصل فى الماضى لكنه يُمَثّل حاضرًا ينطق به حال عمر أو إحدى شخصياته بصيغة الحال كما فى قوله :

١- ديوانه : ١٦٦

أريتَكَ إذ هُنّا عليكَ ألم تَخف - وُقيتَ - وحولى من عدوك حُضَّـرُ ؟
فوالله ما أدرى: أتعجيلُ حاجةٍ سَرتْ بك أم قد نامَ من كنتَ تحذَرُ؟

ويتضمن الحوارَ هذا الدعاء الجميل -وُقيتَ - إنه حوار فى حوار !

هكذا يكون الحوار - عند عمر - إثر حادثة يقصها أو ذكريات ينثرها فى تنويع من نحو هذا الحوار الذى وهبه قدرا من الليونة ! (فإذا القارىء لا يجرى فى خط واحد ، ولا يستمع إلى رنة واحدة وإنما يتجاذبه المتحاوران وتكون له أذنه التى تسمع هنا وأذنه التى تسمع هناك واذا هو يفيد من ذلك قدرا من التنبيه ، وإذا النص يفيد .. قدرا آخر من الإثارة) (١)

وهـذا ما يوضـح لنـا غـرض الحـوار فى القصـة وهـو / تطوير موضوعهـا للوصول به إلى النهاية المنشودة .

" وليس فى الشعر العربى كله ما يضارع هذا الحوار المسرحى سهولة وحزالة بل ليس بين الشعراء من يجارى عمر فى وصف هذا الحوار أو ســـرده " (٢)

***

١- راجع تطور الغزل ص ٤٣٥
٢- عمر بن أبى ربيعة جـ ٣ / ٤٥٤

ثالثا : السـرد والخدمـة القصصيـة

ولا بد فى العمل القصصى من السرد (بل نكاد نتفق على أن عالم القصة هو عالم حكائى يلعب فيه السرد دورا رئيسيا ، فمهما كانت التقنيات الروائية متقدمة فإن وراء الشخوص والأشياء كاتبا يستعمل مهارته الحكائية ليوهمنا بإمكانية الأشياء والشخوص والأحداث وبمنطقيتها ، وهذه المهارة الحكائية مرتبطة أساساً بما نسميه لغة السرد ..) (١)

- والنص الشعرى عند عمر فى أغلبه مجموعة من المقاطع الحكائية مسترسلة فى زمنها أى أن السرد فيها حكائى ، وقد اتسم بما يجب فى هذا النوع الحكائى : من الوضوح والخفة وملائمة المعانى للأحداث ، وهذا ما يضمن للقصة الحيوية والجاذبية .

وشاعرنا إنما يستعمل هذا السرد حينما يخلو إلى نفسه ، فيصف حاله أو شيئا من جمال محبوبته أو يتحدث عن مغامرته للوصول إليها .

- فمن صور السرد التى يحكيها قوله :

وليلةَ ذِى دَوْرَان جشَّمنى السُّرى ... وقد يجشَم الهولَ المحبُّ المغَرَّرُ

فبتُّ رقيبًا للرفاق على شفـا ... أحاذر منهم من يطوفُ وانظـر

إليهم متى يستمكن النومُ منهـمُ ... ولى مجلسٌ لولا اللبانةُ أوْعَـرُ

وباتتْ قلوصِى بالعَراءِ ورحْلُهـا ... لطارقِ ليـلٍ أو لمن جـاء مُعْـوِرُ

١- راجع قصص النادى الثقافى التونسى عدد ٧٢ ص ٤١

وبتَّ أناجي النَّفس أين خِباؤها وكيفَ لِما آتيْ من الأمرِ مَصْدَر (١)

❋ ❋ ❋

وقد تأثر ابن أبي ربيعة بالشاعر : " سُحيم عبد بني الحسحاس "

- فالمرأة عند " سُحيم " تشير إلى تِربها وتتسائل :

أشارتْ بمدراهــا وقالت لتِربهــا
أعبدُ بني الحسحاسِ يُزجي القَوافيا ؟ (٢)

- ونرى في نفس المعنى يقول عمر :

وأشارتْ إلى نساءٍ لديهــا لا تــرىٰ دونهــنَّ للســرِّ ســـتَرا

ما لقلبي كأنَّهُ ليسَ منــّي وعِظــامي أخَــال فيهــنَّ فتــْــرا

من حديثٍ نُمي إليّ فظيعٍ خِلتُ في القلب من تلظّيه جَمْرا (٣)

- وسُحيم يُجَن بحبه لها :

جنونًا بها فيما اعْتشَرنا عُلالةً علاقَةَ حُبّ مُسْتَسِرّاً وَبادِيا (٤)

- ويُجن عمر بحبه لها :

أردتُ فراقَها وصبرتُ عنهـا ولو جُنَّ الفؤادُ بها جُنونا (٥)

- وعمر يريد حبيبته كما أرادها سحيم ، ويستنطقها كما استنطقها سحيم :

بأحْسَن مِنها يومَ قالتْ : أراحلٌ مع الرَّكبِ أم ثاوٍ لديْنا لَيالِيا (٦)

- وهو يرسل لها رسالةً ويجعل لها علامة تهْتدى بها إلى رسالته فتأتيه تمشــى تهاديــا ! :

---

١ - ديوانه : ٩٥

٢- ديوان سحيم ص ٢٥ . والمدرى : ما تدرى به شعرها

٣- ديوان عمر : ٤٩٢ - ٤٩٣

٤- ديوان سحيم : ١٧ واعتشرنا من العشرة والصحبة ، والعلاقه : ما علق من الحب

٥- ديوان عمر ٤٠٣ وفى رواية أخرى ص ٤٢ « أردت بعادها فصددت عنها .. »

٦- ديوان سحيم : ١٨

ألِكْنى إليها (١) عَمْرَكَ اللهَ يافتى   بآيةِ ما جاءتْ إلينا تهاديا (٢)

- وفى هذا المعنى يقول عمر :

وآيــةُ ذلك أن تســْـمعِى   إذا جِئْتُكمْ ناشِــداً ينْشُــدُ (٣)

***

فالسرد فى هذه الأبيات حكايةٌ لمغامرته ووصف لحالة وهو أيضا مناجاة للنفس .

- وربما اشتمل السردُ على تقرير حقيقة :

واستبدَّتْ مــرةً واحـــــدةً   إنمَّــا العاجــزُ مَن لاَ يسْــتبِدْ

أكمَــا ينْعتنى تُبْصِــــرننى   عمركـــنَّ اللهَ أم لا يقْتَصِــــدْ

فتضاحَكْنَ وقدْ قُلنَ لهـــــا   حَسَــنٌ فى كل عيــنٍ مَنْ تَــــودْ

حَسَداً حُمِلْنَه من شأنِهـــــا   وقديمًا كان فى النَّاسِ الْحَسَدْ (٤)

- وقد يلجأ إلى سرد الماضى ، عندما يتذكر حبه الفاشل أو عندما يقف على ديار محبوبته :

شــاق قلبى منــزلٌ دثَـــــرا   خَالَـــفَ الارواحَ والْمطَـــــرا

شَمْــألا تُذرى إذا لــــعبتْ   عاصفــاً أذيالَهــا الشَّجَـرا (٥)

- وكقوله وقد أخذت الذكريات بمجامع قلبه ، فراح يسرد مغامراته

١- ألكنى : أى ابلغها عنى رسالة ، والمألكة : الرسالة

٢- ديوان سحيم : ١٩

٣- الأغانى جـ ١ / ٨٨ والديوان : ٣٠٩

٤- ديوانه : ٣٢١

٥- ديوانه : ١٦١

مستنطقاً آثار محبوبته :

قِفْ بالدّيارِ عَفَا من أهْلِها الأثرُ　　عَفَّى مَعالِمَهَا الأرواحُ والْمطَرُ
وقفتُ فيها طويلاً كى أسائِلَهَا　　والدارُ ليس لها عِلْمٌ ولا خَبَرُ
دارُ التى قادَنى حَيْنٌ لرؤيَتِها　　وقد يقودُ إلى الْحَيْنِ الفتىٰ القَدَرُ(١)

- وكثيراً ما يستخدم السرد إذا أراد وصف محبوبته أو صدى ذلك فى نفسه :

خُودٌ تُضىءُ ظلامَ البيتِ صورتُها　　كما يُضىء ظلامَ الحندسِ الْقَمرُ
مجدولةُ الْخَلْقِ لم تُوضع مناكبُها　　ملء العناق ألوفٌ جَيْبُها عطِرُ

- وربما ساقه السرد لجمال محبوبته ، إلى أن يعْصِفَ به الحنين ، ويلم به الوجد ويطوّقه الماضى الذى لا يستطيع نِسْيانه ، لهذا يطلب من صاحبيه أن يقفا معه على أطلالها :

ياصاحبىَّ قِفا نَسْتَخْبِر الدار　　أقوتْ فهاجتْ لنا بالعصْفِ أذْكارا
تبدّل الربع ممن كان يسْكُنه　　أدم الظباءِ به يمشين أسْطَارا
وقد أرىٰ مرة سربا به حَسَنا　　مثلَ الجآذرِ أثياباً وأبْكَارا
فيهنَّ هنْدُ وهندٌ لا شبيهَ لها　　مِمن أقامَ من الجيرانِ أوْ سَارا

- وعلى هذا المنوال سَرَد عمر وقائعَ حُبِّهِ * ولعله وضع واختلق وقائع لم تجرِ له .. وقد أنطق أشخاص قصته ، فبدتْ ذواتٍ حيةً ، وتعرّض لذكر الأحاديث والمحاورات التى كانت تدور بينه وبين بعض صواحبه ...

١- ديوانه :١١٦

وهى صعوبة فى نظم الشعر لا يستطيع التغلب عليها إلا المطبوعون على سرد القصص . (١)

***

وقد دعته موهبةُ السَّردِ القصصيِّ إلى تجْسيد الصور ، كما دعته إلى مخاطبةِ نفسِهِ تارةً ، ومخاطبةِ غيرِهِ من الناس أو الحبيبة تارةً أخرى وهذا ما يدعونا للحديث عن :

الخدعة القصصية :

نلاحظ فى قصة عمر التنوع فى استعمالات الضمائر ، فتارة : يحكى بضمير المتكلم ، لأنه الذى تقمَّص شخصيةَ البطل ، وتكلم بلسانه - والتحدث بضمير المتكلم كثيرًا ما يمثّل تطورًا فى نطاق الواقعية - وتارة أخرى : يعْدِل فى سرده عن ضمير التكلم إلى المخاطب ، فيتجه إليه بحكايته ، وقد يعْدِل عن هذا وذاك إلى ضمير الغائب ، وهو أكثر أشكال السرد عنده ، وبه استطاع أن يرْصُد سلوكَ أشخاصِه جميعا .. وهذا التلوُّن في سرد حكاياته هو ما يسميه البلاغيون (بالالتفات) وما يمكن أن نطلق عليها تقنيه استخدام الضمائر وهو نوع من الخِدعة القصصيـــة .

- واستخدام أحدِ الضمائر مكانَ الآخر فى سياق السَّرد القصصيِّ إنما يكون لتلافي غيابِ صيغةٍ ما ، وإيجادِ ضميرٍ غيرِ واردٍ فى السِّياق .. فاستخدام ضمير الغائب مكان المخاطب في سياق التعظيم يُمَكِّن من التخلُّص من الصيغةِ الإرشادية ، وربما التخلّص من الطبقيةِ الاجتماعية التى توحى

١- المقتطف م٩١ جـ١ / ٤٥

بهـــــــا ... (١)

فلو تأملنا قول ابن أبي ربيعة :

قلْ لِلمليحةِ قد أبْلتنيَ الذِّكَرُ فالدَّمـعُ كلَّ صباحٍ فيكِ يَبْتَـدِرُ
فليتَ قلبي وفيه من تَعلُّقِكم ماليسَ عِندي له عِدلٌ ولا خَطَرُ (٢)

لوجدناه بدايةً يخاطب إنساناً غيرَ صاحبتهِ - وكأنهـا غائبـة - فيأمره أن يُبْلغها وجْده ، ثم يعْدِل عنه إليها فيخاطبها بصيغة الجمع ليشعرها بمكانتهـا في قلبـه .

- بل قد يتحوَّل من ضمير المؤنث الجمع ومن المخاطب إلى الغائب في البيت الواحد كقولـه :

ياسُكْنُ حُبُّكِ - إذ كلفتُ بحبكم عَرَضاً - أراه وربِ مكةَ مُمْرِضِي (٣)

أو كقوله :

يا ربةَ البغلةِ الشَّهْباءِ هَلْ لَكُمُ أن تَرْحَمي عُمَرًا؟ لا تَرْهقِي حَرَجَا (٤)

وما أجمل الانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله :

أشارتْ : بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ هبوبٌ ولكنْ موعدُ لكَ عَـزْوَرُ

وهي لم تنتقل هذا الانتقال الجميل إلا لتضربَ له موعدًا جديدا !

والأمثلة من هذا القبيل كثيرةٌ وفيها دليلٌ على مَقْـدرة الشاعـر على تلك الخِدعة القصصية ، ولنتأمل حديثَه النفسيَّ الداخلي :

بحاجةِ نفسٍ لم تَقُل في جَوَابِها فتبلغَ عُـذراً والمقالـةُ تَعـذِرُ

١- قصص النادي الثقافي التونسي عدد ٧٢ ص ٦٨ تعريب أحمد ممو

٢- ديوانه :١١٣

٣- ديوانه :٤٧٨

٤- ديوانه ٤٦٩

- إن نفسه تنازعه بقول هو غايةُ السرّ الذى لا يُجاب عليه ، ورغم هذا يلتفت إلى مخاطَبِه فى مُرونةٍ ومَهارة :

أهِيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّملُ جَامِعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا أنْتَ مُقْصِرُ

ولا قربُ نعمٍ إن دَنَتْ لكَ نافعٌ ... ولا نأيُها يُسْلى ولا أنتَ تَصْبِرُ (١)

، لهذا لا أستريح إلى ما ذهب إليه الأستاذ العقاد حيث رأى : أن الالتفات فى شعر عمر من ضرورة الوزن (٢)

***

رابعا : حكايات العُتْبِ والاعتذار

- ١ -

يمثل العُتْبُ والاعتذارُ فى شعر عمر حكاياتٍ كثيرةً يمكن أن نطلق عليها " حكايات العتب والاعتذار " .

فالقارىء لشعره يجد كثرةً منها تدورُ حولَ نفى تهمةٍ أو تأكيد حب أو تكذيب كاشح .. ويمكن تعليل هذه الكثرة - أو الظاهرة المتفشية - (بسطحية حب عمر ، وتخلخل معظمه إذ يسيطر عليه الشك وتتحكم فيه الظنون ، وينسرب إليه الوشاة ، فيورث ذلك هذا العتاب والاعتذار) (٣)

- نتيجةً لذلك كانت حياة ابن أبى ربيعة سِلْسلةً من الوصل والهجر واللقاء والبعد بينه وبين صاحباته ! وفى الهجر يكون العتاب وفى الوصل

١ - ديوانه : ٩٢

٢- شاعر الغزل للعقاد ص ٧٠

٣- راجع تطور الغزل ص ٥٢٤

- بعد الهجر - يكون الاعتذار ! والعتاب إنما يكون مشافهةً حينما يلتقى بحبيبته أو يُرسل إليها رسولاً بحكايته !

من ذلك ما ذكره الرواة عن محبوبته الثريا التى أخلصت له حبها وقد سمعت مرة بتعرضه لأخرى هى " رملة الخزاعية " وسمعت بوصفه لجمالها - وكانت رملة جهمة عظيمة الأنف - فأنكرت الثريا على عمر أن يَتدنّى إلى ذلك المنحدر فى تقديره للجمال - وهو الخبير بفنونه - وقالت أفٍّ له ما أكذَبه ! أوَ ترتَفِعُ حسناءُ بوصفهِ لها بعد رملة ؟ وَهَجَرتْه . فأرسل إليها يَتَحِلُ الأعذار ، محاولاً كسبَ قلْبها من جديد فقـــال :

قال لى صاحِبى ليعلمَ ما بى … أتحبُّ القتولَ أختَ الرَّبَـابِ ؟
قلتُ وجْدى بها كوجْدكَ بالعذ … بِ إذا ما مُنعتَ طعم الشّـرابِ
مَنْ رسُولى إلى الثّريـا بأنىِّ … ضِقتُ ذرعًا بهجْرِها والكتابِ ؟ (١)

وتصرّ هى على هجرهِ ، فيظل محاولاً رأبَ الصَّدع واصلاح ما فسد فيرسل إليها معاتباً على هجرها ، شارحًا مدى حبه لها :

أيُّها العـاتبُ الذى رامَ هجْـرى … وبعَـادي ، وما علمتُ بـذاكا
ألِقَتْلى أرَاكَ أعْـرَضتَ عـنّى … أم بِعَاداً ، أم جفـوةً ؟ فكفَـاكا
قد بَرَيتَ العظـامَ والجِسْـمَ منّى … وهَوَانـا مـُـوَافِقٌ لِهـَـواكا
أنت فى القول عازفٌ من هوى النّفـ … ـسِ الينا فى الطّرفِ حينَ نَراكا
واذا ماوَشَـى إليكَ بِنَـا الـوا … شُونَ صدَّقتَ ظَالِما مَنْ أتَـاكا

١- الديوان :٤٣٠

شَلَّ منهُ اللِّسانُ إن كنتُ أهوىٰ ... مِنْ بنى آدمَ الغداةَ سِوَاكَا (١)

وتظل على هجرها وعنادها لا ترد ! فيذكِّرها - فى رسالةٍ أخرى - بليلةٍ من ليالى لهوهِ معها هى : (ليلـة المطـارف والوبـل) :

يا ثُرَيَّا الفـؤادِ رُدِّى السَّلامَـا ... وصِلينَـا ولا تَبَتِّى الذِّمَامَـا
واذْكُرى ليلـةَ المطَـارفِ والْـ ... ـوبلِ وإرْسَالَنا إليكِ الْغلامَا
واذْكرى مجلسًا لدى جانبِ الْـ ... ـقصـرِ عَشِيًّا ومُقْسَمِى أقْسَامَا
فى ليـالٍ منهـنَّ ليلـةُ بَاتَتْ ... ناقتى والهَـا تَجُرُّ الزِّمَامَـا
يغْسِلُ القطـرُ رحْلَهَـا لا أبالِى ... أن تَبلَّ السماءُ عَضْباً حُسَامَا (٢)

- وهو حينما يعاتِبُها يفنِّد زعَمها ، ويذكِّرها بأنها هى التى بدأت الهجر وأعطت أذناً صاغيةً لواشٍ لا يريد لهما الخير ، دون أيةِ جريرةٍ ارتكبها ، فيقول :

أخْطَأتِ أنتِ بدأتِ بالصَّرم ... واتبعتِ مِنَّا الهجرَ بالسَّلمِ
وزعـمتِ أنىّ قد ظَلَمْتُكُـمُ ... كلاَّ وأنتِ بدأتِ بالظُّلْـمِ
وسَمِعتِ بى قولَ الْوُشَاةِ بلا ... ذنبٍ أتيتُ بهِ ولا جُرْمِ (٣)

* * *

- والحبيبة قد تَعْتِبُ عليه ! وعِتابُها يدورُ حول التشنيع بها أو حول الصدودِ والإعراض عنهـا :

كتبتْ تعتبُ الرَّبابُ وقالتْ ... قد أتَانا ما قُلتَ فى الأشْعارِ

١- الديوان ص : ٤٧٣
٢- ديوانه : ٢٣٦
٣- ديوانه : ٢٥٤

سادراً عامداً تُشهّرُ باسمي ... كي يبوحَ الوشاةُ بالأسرارِ
فاعتزلنا فلن نُراجعَ وصلا ... ما أضاءتْ نجومُ ليلٍ لِسارِ

فيجيب :

قلتَ : لا تَصرمي لتكثيرِ واشٍ ... كاذبٍ في الحديثِ والأخبارِ
لم نَبُحْ عنده بسرٍ ولكنْ ... كَذِبٌ ما أتاكِ والجبّارِ
لا تُطيعي فإنني لم أُطِعْهُ ... أنتِ أهوى الأحبابِ والأخوارِ (١)

- وهذه أخرى من النساء تَعْتِبُ عليه لأنه لم يكن باسمها :

وقالتْ لفتاةٍ عِنْـ ... ـدها حَوْراءَ كالرِّئْمِ
أهوَ يا أختُ باللهِ الَّـ ... ـذي لم يكن عن اسمي (٢)

وتكثُرُ رسائل العتاب من الحبيبة وهو يردُّ عليها :

ورسالةٌ منها تُعاتِبُني ... فَرَددتُ مُعتبةً على هِنْدِ
أن لا تلومي في الخروجِ فما ... أَسْطِيعُكمْ إلاّ على جَهْدِ (٣)

ويرد على عتاب أخرى :

أتاني كتابٌ منكِ فيه تَعَتُّبٌ ... عليَّ وإسراعٌ هُديتِ إلى عَذْلي (٤)

- ٢ -

أما الإعتذار فيأتي غالباً وقد تغيرتْ نفسُ أحدهما عن الآخر من طول هَجْرٍ أو كلامِ واشٍ ، وتبدو لباقةُ صاحبنا في اعترافه بالذنب فهو المذنب دائماً طالب العفو غالباً :

أنتِ الأميرةُ فاسْمعي لِمَقالتي ... وتفهّمي من بعضِ مالم تفهَمي

١- ديوانه : ١٣٦
٢- ديوانه : ٢٥٧
٣- ديوانه : ٣٢٥
٤- ديوانه : ٣٤٦

إنى أتوبُ إليكِ توبةَ مذنبٍ ... يَخْشَى العُقوبةَ من مَليكٍ مُنْعِم
حتى أنال رضاكِ حيثُ عَلِمْتُهُ ... بطريفِ مالى والتليدِ الأقدمِ (١)

- وقد يُقسم على صدقه رجاءَ قبول عُذره والصَّفح عن زلته :

اقبلى العذرَ من فتىً ... صادقٍ غيرِ آثم
لم يخنْكِ الودادَ لا ... لا وربِّ المواسم
اتقِ اللهَ فى فتىً ... ماجدٍ أختَ هاشم (٢)

وشاعرنا - فى عتبه - قوىُّ الحجّة لبق فى تبرير موقفه ، فقد عاتبته امرأة هجرها مدةً ثم التقيا فلامته ، وأراد أن يسترضيها بشىء غير صحيح ، بيد أنه لقى قبولاً عندها :

فهى تعتب بقولها :

ثم قالتْ عند العتابِ رأينا ... فيكَ عنّا تجلداً وازْوِرَارا

فيجيب :

قلتُ:كلاَّ لاهِ ابنُ عمِّكِ بل خِفْـ ... ـنَا أمورًا كنّا بها أغْمارا
فَجعلْنَا الصُّدودَ لما خَشِينَا ... قالةَ النَّاسِ بيْنَنا أسْتَارَا (٣)

فهذه حكاية عتب فيها نوع من المغالطة .

- ٣ -

ومن أساليب الاعتذار فى القصة : (القسم)

وهو كثيرٌ فى حكاياتِ عمر ، يستعمله ليدلَّ على حُبه وإخلاصه أو ليؤكدَ

١- ديوانه : ٢٣٦
٢- ديوانه : ٢٥٣ - ٢٥٤
٣- ديوانه : ١٣٩

عدم هجرانه ، أو ليصل به إلى قلب محبوبته ، فيقسم بالخالق سبحانه ، وبالنبى ﷺ وبالإسلام .... ! ومن ذلك ما أقسم عليه من حب فتاة تدعى " سُعيدة العراقية " :

من البَكَرات عِراقيةٌ تُسمَّى سُعيدةَ أطريتُها
أموتُ إذا شحطتْ دارُها وأحيا إذا أنا لاقيتُها
فأقسمُ لو أنَّ مابى بها وكنتُ الطبيبَ لداويتُها (١)

ويحلف بالله سبحانه وتعالى :

واللهِ لا آتيكُمُ حتَّى يزورَ الأوَّلُ (٢)

ويحلف أيضاً بالله سبحانه وتعالى مؤكداً حبه :

وقلتُ لها : والله مازلتُ طائعاً لكمْ سامعاً فى رجعِ قولٍ وفى فِعلٍ (٣)

وقد يتعدد القسم بالله سبحانه والأماكن المقدسة فى بيتٍ واحد :

واللهِ والبيتِ العتيقِ لقد ساويتِ عندى جنةَ الخُلْدِ (٤)

- وها هو ذا يقسم بالله إن النوم ماعرف طريقاً إلى عينيه ، وأن قلبه لازال حزيناً لفراقها :

باللهِ ما نمتُ من نومٍ تقرُّ به عينى ولازالَ قلبى بعدكمْ كمدا (٥)

- وهو يقسم بالأماكن المقدسة لتوكيدِ حبه ، وعدم خيانته :

إنّى ومَنْ أحرمَ الحَجيجُ له وموقفِ الهدى بَعْدُ والبُدُنِ

---

١ - الديوان :٤٨٧
٢- الديوان :٣٦١
٣- ديوانه :٣٤٦
٤- ديوانه :٣٢٥
٥- ديوانه :٣٦٨

والبيتِ ذي الأبطحِ العتيقِ وما حُلِّلَ مِنْ حُرِّ عصْبِ ذِي اليَمَنِ
والأشعثِ الطائفِ المُهِلِّ وما بينَ الصفَا والمقامِ والرُّكْنِ
وزمْزمٍ والجمارِ إذْ رُمِيَتْ والجمْرتينِ اللَّتينِ بالبطنِ
ماخنتُ عهدَ القتولِ إذْ شحطتْ ولوْ أتوْها بهِ لتصْرِمَنِي (١)

ويحْلِف شاعرنا بحياته :

فقالوا لعمري قد عهِدْناكَ حِقْبةً وأنتَ امروٌ من دونِ ما جئتَ تَخْطِرُ(٢)

كما يحلف بحياة الحبيبة :

إنَّا لعمركِ ما نخافُ وما نرجُو زيارةَ زائرٍ ظُهُراً (٣)

***

- ومثلما يقسم ابن ابى ربيعة ، تقسم الحبيبة أيضاً على حبها له وأنه يعيش فى قلبها ، لا يعدله أحد :

وأنها حلفت باللهِ جاهدةً وما أهلَّ له الحجاجُ واعتمروا
ما وافق النفسَ فى شيءٍ تُسَرُّ به وأعجبَ العينَ إلا فوقَه عُمَرُ (٤)

وتتعدد الإيمان فيقسم على إخلاصه وعدم خيانته بشتى الإيمان :

لا والَّذى بعثَ النبيَّ محمداً بالنورِ والاسلامِ دينِ القيِّمِ
وبما أهلَّ به الحجيجُ وكبَّروا عندَ المقامِ وركنِ بيتِ المُحَرَّمِ
والمسجدِ الأقصى المباركِ حَوْلَه والطورِ حَلْفَةَ صادقٍ لمْ يأثَمِ

١- ديوانه :٣٩٧
٢- ديوانه :١٦٦
٣- ديوانه :١٥٥
٤- ديوانه :١١٩

ما خنتُ عهدكِ ياعُثَيْمَ ولاهفَا قلبى إلى وصلٍ لغيركِ فاعْلَمِى (١)

- إذن فعمرُ قد استخدم القَسَمَ فى أسلوبه القصصىّ ، بمهارة فنيةٍ وقد قصد إلى إدخال الاطمئنان فى قلب الحبيبة ، ويتضح من خلال استعماله للقســم شــيئان :

الأول : تأثره بالإسلام ، وأن صاحباتِهِ مسلمات ، ولذلك يأتيهنّ من جانب العقيــدة .

الثانى : أن الأقسام يكثر استخدامها عادةً بين الناس فى لغتهم اليومية يعْتِبُ بعضهم على بعض ، فيدفعون بها التُهَمَ والعتب غالباً ، فعمر إنما أراد أن يتحدث بلغة الناس فى حياتهم اليومية بما هى عليه من سهولة واقتران بالقسم عادةً حينئذ يكثر تداولها وانتشارها ، وهذا ما قصد إليه عمــر .

- ٤ -

وجاء فى قصة عمر كلام هو خلاصة تجربة إنسانية يتكرر مثلها بين الناس عامة والمحبين خاصة ، فصارت أشْبهَ بمثلٍ يروى أو حكمةٍ تُقابل بالتسليم إذْ أنها دليلٌ على حقيقه لا تنكر !

من ذلكِ قوله :

لا تأمننّ الدّهـرَ أنثى بَعْدَهـا إنىّ لكمـن غـدْرِهنّ نذيـرُ (٢)

- لقد أعمل عقْلَه ، فصاغ تجاربَه الحُيِّةَ التى سَبَر غوْرَها ، وكان دليله الواقع الذى عايشه :

١- ديوانه : ٢٣٠

٢- ديوانه : ١٣٦

أفِقْ قد أفاقَ العاشِقون وفارقوا الـ ـهوىٰ واستمرت بالرِّجالِ المَرائِرُ
زَعِ القلبَ واستبقِ الحياءَ فإنَّما تُباعِدُ أو تُدْنِى الرَّبابَ المَقادِرُ
فإن كنتَ عُلِّقتَ الرَّبابَ فلا تكنْ أحاديثَ من يبْدُو ومَنْ هو حاضِرُ
أمِتْ حُبَّها واجعلْ قديمَ وصالِها وعِشْرتها أمثالَ مَن لا تُعاشِرُ
وَهَبْها كشىءٍ لم يكُن أو كنازحٍ به الدار أو مَنْ غيَّبتْه المقابِرُ
فإن أنتَ لم تفعل ولستَ بفاعلٍ ولا قابلٍ نصحًا لمنْ هوَ زاجِرُ
فلا تفتضحْ عينًا أتيتَ الذى ترى وطاوعتَ هذا القلبَ إذْ أنتَ سادِرُ
ومازلتُ حتى استنكرَ الناسُ مُدْخلى
وحتَّى تراءتْنى العيونُ النَّواظِرُ(١)

فالأبيات وان اصطبغتْ بصبغة ذاتيةٍ إلا أنها تَشْمل كلَّ من جرَّب الحبَّ وذاقَ لوعتـه !

- وربما صارتْ تجربتُه حكمةً مستقاةً من واقعِه ، كقوله :

السِّرُّ يكتمه الاثنانِ بينَهُما وكل سرٍّ عدا الاثنين منتشِرُ
والمرءُ إن هو لم يرقبْ بصبوته لمْحَ العيونِ بسوءِ الظنِّ يشْتهِرُ

وهو أيضا يستلُّ من واقعِه هذه الحكمة :

فلو أنى خَشِيتُ أو خِفْتُ قتلاً غير أنَّ ليس تَدفعُ الأقدار
لاتقَيْتُ التى يفتِن النَّـا سَ ولكنْ لكلِ شىءٍ قِـدار

هكذا يميل عمر الى الحكمة يذيِّلُ بها شعره ، وهذه الحكمة الغزلية - إن صحَّ الوصف - كانت من إيحاء الغزل صياغةً ومعنىً ، وفى مجالات

١- ديوانه : ١١٠

الحب يصح الاستشهادُ بها :

واستبدتْ مرة واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبدْ

فتضاحكْن وقد قلْنَ لها حَسَنٌ فى كل عينٍ مَنْ تَوَدْ

حَسَداً حُمِلْنَهُ من أجْلِها وقديمًا كانَ فى الناسِ الحَسَد (١)

تُرى ماذا وراء هذه الحكمة ؟ وما الذى يبتعثها ؟ أهى خيبة المسعى أم تنويعُ التعبير ؟ أهو عمل نفسىّ أم هو عمل ذهنىّ ؟ إن ذلك جدير بالملاحظة والانتباه (٢)

***

١- الديوان : ٣٦١

٢- راجع تطور الغزل ص ٤٣٩

الباب الثاني

عمر بن أبي ربيعة
بين التأثر والتأثير

الفصل الأول
تأثره بالسابقين

من الطبعي أن يكون عمر قد أفاد من السابقين ، وأن يكون الاتجاه القصصي في غزله صدى لبعض شعراء الجاهلية . " ولا جدال في أن امرأ القيس هو الذى ابتدع القصة الغرامية فى القريض العربى ، ولكن الفرق كبير بين قصصه المقتضبة السيئة الترتيب أحيانا وبين قصص عمر الممتعة الرائعة والمرتبة ترتيبا محكماً ، وذلك أن تقارن بين قصتى امرىء القيس اللتين تحتوى عليهما معلقته وبين قصص عمر لتتحقق من أن عمر قد هذّب القصة الشعرية تهذيباً غير قليل " (١)

فالتشاكل بين الشاعر الجاهلى والإسلامى لا يجاوز أن يقع فى جانب وتبقى جوانب أخرى ، (فامرؤ القيس يشير إلى الحادث إشارة عابرة كما فى يوم " دارة جلجل " ويوجز فى حديثه عن يوم عقر ناقته ، ويوم دخل " خدر عنيزه " أما عمر : فقد استطاع أن يطيل المدى القصصى من جانب وأن يغذيه بالتعمق فى سبر أغوار النفس واستكناه مسارب الهوى والنفاذ إلى ما تنبض به قلوب الفتيات من حوله ، ففى قصته : " وليلة ذى دوران " نلمح عرض الأحداث ، ونراه يرسم الزمان والمكان ، ويبعث الشخصيات ، ويعرض بعض المواقف ويمهّد للحوادث المقبلة ويوحى بها) (٢)

- وعلى كل حال تأثر عمر بامرىء القيس ، وأخذ عنه كثيراً من المعانى البدوية التى كساها بزخرف المدنية وطابع الحضارة فبالموازنة بين معلقة

---

١ - راجع عصر القرآن محمد مهدى البصير ص ١٤٣
٢- راجع تطور الغزل ص ٣٨٤

امرىء القيس وقصائد عمر الطوال - خاصة رائيته - ندرك جيداً مدى تأثر عمـر بصاحبـه .

فعمـر ليس أول من وصف (حالته عند الحبيبة) : بل هو مسبوق بامرىء القيس الذى راح إليها متسللا يسمو سمو الحَباب :

سموتُ إليها بعدما نام أهلُها   سموَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حال (١)

وعمر أيضا : ينفض عنه النوم ليمشى إليها مِشية الحُباب :

وخفض عنى الصوت أقبلت مشيـة
الحُباب وشخْصى خشيةَ الْحىِّ أَزْوَرُ (٢)

- وواضـح أن عمـر يستعير بعض الألفاظ إلى جانب المعنى ومن ذلك أيضا قول عمر عن صاحباته اللائى يطمسن آثار سيرهن بذيل الثياب :

يَسْحَبْن خلْفِى ذُيولَ الخزِّ آونةً   وناعِم العَصْب كيلا يُعرف الأثرُ (٣)

وقوله فى طمس الآثار أيضا :

فنهضنا نمشى نعفّى بـرودا   ومرُوطـاً وهْناً على الآثـار (٤)

هو مقتبس من قول امرىء القيس :

خرجتُ بها تمشى تجر وراءنا   على أثرَيْنا ذيل مرطٍ مُرحَّل (٥)

وقول عمر فى مفاجأة صاحبته بالزيارة ليلا :

١- ديوان امرىء القيس :٣١
٢- ديوان عمر :٩٦
٣- ديوان عمر :١١٦
٤- ديوان عمر :١٣٥
٥- ديوان امرىء القيس :١٤

فلم يَرُعْها وقد نَضَّتْ مَجاسِدَها ... إلا سوادٌ وراءَ البيتِ يَسْتَتِرُ (١)

هو مقتبس من قول امرىء القيس :

فجئتُ وقد نَضَّتْ لنومٍ ثيابهـا ... لدى السِّتْرِ إلا لبسةَ المتفضِّلِ (٢)

وهكذا حبيبة عمر تبدو رائحتها ذكية :

يمُجُّ ذكيَّ المسكِ منها مُقبَّـلٌ ... نَقِيُّ الثَّنايا ذو غُروبٍ مُؤَشَّرِ (٣)

وحبيبة امرىء القيس جميلة الخدّ والعين :

تَصُدُّ وتُبْدِي عن أسيلٍ وَتَتَّقى ... بناظرةٍ من وحْش وجْرةَ مُطْفِلِ (٤)

وجِيد كجِيد الريم ليس بفاحشٍ ... إذا هى نصّتهُ ولا بُمعطَّـــــلِ

وكذلك حبيبة عمر :

وخدٍ أسيلٍ كالوَذيلةِ ناعـمٍ ... متىْ يَرَه راءٍ يهُلّ ويُسحَـرِ

وعينَى مهاةٍ فى الخميلة مطفلٍ ... مكحّلةٍ تبغى مَراداً لجُؤْذَرِ (٥)

والساق عند امرىء القيس كأنبوب السقى المذلل :

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كأُنْبوبِ السَّقىِ المذلَّلِ (٦)

وكذلك محبوبةُ عمر :

وتخْطوُ عَلَى بُرْدِيَّتَينِ غَذَاهُما ... سوائِلُ من ذِى جَمَّةٍ مُتَحَيِّرِ (٧)

- والحبيبة مدللةٌ عند الشاعرين ، فهى نَؤُوم الضُّحى عند امرىء القيس :

١- ديوان عمر : ١١٤

٢- ديوان امرىء القيس : ١٤

٣- ديوانه : ٩٨

٤- ديوانه : ١٦

٥- ديوانه : ١٠٤

٦- ديوانه : ١٧

٧- ديوانه : ١٠٤

وتُضْحِي فتيتُ المسكِ فوقَ فراشِها　　　نئُومُ الضُّحىٰ لم تَنْتطِق عن تَفَضُّلِ(١)

وكذلك محبوبة عمر نَؤُوم الضُّحى :

من البيضِ مِكْسالُ الضُّحىٰ بخْتَرِيـةٌ
ثِقَالٌ متىٰ تَنْهَضْ إلى الشيءِ تَفْتُـر (٢)

(صفات الحبيبة) :

ومن الطريف أننا لو تأملنا صفاتِ الحبيبة عند عمر : لوجدناها تشبه حبيبة امرىء القيس فى كثير من الصفات ! فهى / طويلة الجِيد ، سوداءُ الشعر ، عَيْناها كعينى الريم ، أسيلة الخدّ ، هَيْفاء ، خمْصاء البطنِ ، رديفةُ العجُز ممتلئة الساقين ، مخصَّرةُ القَوَام ! وحبيبة امرىء القيس دائمًا تضع العُطور عليها :

إذا التفتتْ نحوى تَضَوَّع ريحُها　　　نسيمَ الصَّبا جاءتْ بِريَّا القرنْفُلِ(٣)

ولونَ شعر الحبيبة عند الشاعرين شديدُ السواد ، مُتداخل لكثرته :

قال امرؤ القيس :

وفرعٍ يُغشِّى المتن أسودَ فاحِمٍ　　　أثيثٍ كقِنْوِ النخْلَةِ المُتَعثْكِلِ (٤)

وقال ابن أبى ربيعة :

سَبَتْه بِوحْفٍ فى العِقَاص مرجَّلٍ　　　أثيثٍ كقِنْوِ النخْلةِ المُتكوِّر (٥)

وهكذا نرى أعجازَ بعض الأبياتِ أو صدورَها متشابهةً عندهما .

١- ديوانه : ١٧

٢- ديوانه : ١٠٥

٣- ديوانه : ١٥ وفى المعلقات السبع ص ١١ الشطر الأول : «إذا قامتا تضوع المسك منهما»

٤- ديوانه : ١٦

٥- ديوانه : ١٠٤

ولم يتوقف أخْذُ عمر بعض الالفاظ والمعانى ، بل أفاد من حوار امرىء القيس فى مُعلَّقته حين دخل هودج عنيزه على ظهر جملها :

تقولُ وقد مَال الغبيطُ بِنا معـًـا عقرتَ بعيرى يامرأ القيسِ فانْزِلِ
فقلتُ لها : سِيرى وأرخِى زَمامَه ولا تبعدينى عن جَناكِ المُعَـــلَّلِ
فمثْلَك حُبْلى قد طرقتُ ومُرْضِعا فألهيْتها عن ذي تمائمَ مُغْيَــلِ (١)

وفى المعلقة نفسها نرى شيئًا من الحوار والمخاطبات المختلفة :

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدللِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجْمِلى(٢)

و "أغرَّكِ منى أن حبَّك قاتِلى" * ، " فقالتْ يمينُ اللهِ مالكَ حيلةً" (٣)
ومخاطبته لليل : " فقلتُ له لما تمطىَّ بصُلْبِهِ " (٤)
وغير ذلك مما يثبتُ وجودَ الحوَار فى شعر امرىء القيس الذى كان له به فضـــل الســـبق !

- " ولقد أصاب الاديب المرحوم رئيف خورى حين أشار إلى أن عمر وان يكن قد أخذ عن امرىء القيس وقلّده فهو أعمق فى التصوير وأشمل وأدق واكثر تفصيلا قال : فإذا زعمت ان ابن ربيعة تلميذ فلا تنسى أن تضيف إلى زعمك أنه فاق أُستاذه بشوطٍ بعيد واستغل الأسلوبَ الذى قبَسَهَ عنه أقصىٰ استغلال " (٥)

* * *

١- ديوان امرؤ القيس ص ١٧
٢- ديوانه : ص ١٢
٣- ديوانه : ١٣ ، ١٤
٤- ديوانه : ١٨
٥- عمر بن أبى ربيعة جـ ٢ / ٥٠٦

ولو أمعنا النظر فى معلقة امرىء القيس ورائية عمر لوجدنا أن كلا الشاعرين يتجشّم الأخطار للوصول إلى من يحب ، وكلاهما يباغت محبوبته بالزيارة ، فتخافه ، وتلومه ثم سرعان ما تأنس لحديثه ، وكلاهما يدركه الصباح عندها ، فيتألم عند رؤيته ! وحينئذ يتضح فارق بينهما فامرؤ القيس يمنع بسيفه وسهامه ، ويسْخر من زوج صاحبته ويستهين به :

فأصبحتُ معشوقًا وأصْبحَ بعلُها ... عليه القَتَامُ سيىء الظنّ والبالِ

يَغِطّ غطيطَ البكر شُدَّ خناقَه ... ليقتلَني والمرءُ ليس بقتّالِ

أيقْتلني والمشْرَفيّ مُضاجعي ... ومسنونةٌ زُرق كأنْياب أغْوالِ

وليس بذى رمحٍ فيطْعنَنى به ... وليس بذى سَيفٍ وليسَ بنبّالِ

أيقْتلنى وقد شَغَفْتُ فؤادَها ... كما شغفَ المهنوءةَ الرجلُ الطّالى (١)

ـ أما عمر بن أبى ربيعة فيعمَد إلى الاستخفاء ، ولا يواجه الأعداء :

فقالتْ لها الصغرىٰ: سأعْطيه مطْرفى ... ودِرْعى وهذاالبُردَ إن كانَ يحْذَرُ

يقومُ فيمشِى بيننَا متنكّرا ... فلا سِرُّنا يفْشُو ولاهو يَظْهرُ

فكان مِجنّى دونَ من كنتُ أتقّى ... ثلاثُ شُخوصٍ كاعبانِ ومُعْصِرُ

فلما أجزْنا ساحةَ الحىّ قُلنَ لى ... أما تتّقى الأعداءَ والليلُ مقْمِرُ

وقُلن أهَذا دأْبكَ الدهرَ سادراً ... أما تستحى أو ترعوى أو تُفكّرُ

إذا جئتَ فامنحْ طرفَ عينكَ غيرنا .. لكى يحْسَبُوا أن الهوىٰ حيثُ تنظر(٢)

ـ وبعد : فبرغم تأثر عمر الشديد بامرىء القيس لا نقول إن عمر مقلدٌ لصاحبه فى قصصه الغرامىّ بل هو مجدد حيث جاء القص فى شعره صفةً

---

١ ـ ديوانه :٣٢ ـ ٣٣
٢ـ ديوانه :١٠١

لازمة ولم يكن كذلك عنـــد صاحبـــه .

***

- ويطل علينا د . طه حسين برأى لا يخْلُو من غرابة فهو يرى : "أن امرىء القيس هو الذى حاكى ابن أبى ربيَعة ، إذ يفترض أن شعر امرىء القيس منحول وضعه شاعر إسلامى تأثر بعمر بن أبى ربيعة فحاكاه ، وعنده أن هذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر هو فن عمر بن أبى ربيعة فقد احتكره احتكارا "(١)

وفى رأينا أنه قد جانب الصواب ، ولا نجد كثير عناء فى الرد على هذا الزعم والتشكيك فى الشعر الجاهلى ، فالشواهد الكثيرة التى حاكى عمر فيها الأقدمين - فى الصياغة والمعانى أو اقتبسها منهم - لهى خير دليل على وجوده وصحته ، وبتعبير أوضح لو افترضنا - جدلا - أن شاعرًا إسلاميا وضع شعر امرىء القيس ، فماذا يقول فى شعر الآخرين الذين حاكاهم عمر ؟ وإذا كان كل نتاج هؤلاء منحولاً فماذا عن أيام العرب ؟ أكانت منحولةً ؟ وماذا عمَّا حكاه لنا القرآنُ الكريم من قَصص الأقدميـــــن ؟

- بالطبع لا يُعقل أن يكون عمر قد فَطَر هذا الاتجاه القصصيَ فى شعره دون تأثر بشعر سابق . وإذا كانت القصة فى شعر عمر أكملَ منها فى شعر امرىء القيس فتبعًا لقانون التطور والارتقاء يأتى الأكمل بعد الكامل ، والأنضجَ بعد الناضج ، إذن فجذور القصة فى أدبنا العربى

١- حب ابن أبى ربيعة . زكى مبارك ص ٢٧٨

القديم ثابتة دل عليها بعضُ ما أفاده عمــــر .

* * *

- ولم يتوقف تأثر عمر عند امرىء القيس ، بل تأثر بغيره من الشعراء منهم " عنترةَ بن شداد " وقد أخذ عن معلقته تعبيراتٍ بلفظها ونصِّها ، من ذلك قول عنتره :

ولقد نزلتِ فلا تظنِّى غيْـــرَه ... منِّى بمنزلةِ المحبِّ المكْـرمِ (١)

ويقول عمر :

كى لا تشكَّ على التجنبِ إنها ... عندى بمنزلةِ المحبِّ المْكرمِ (٢)

ويقول عنترة :

فإذا ظَلَمتُ فإن ظُلْمِى باســلٌ ... مرُّ مذاقتُه كطعم العلْقَـــمِ (٣)

ويقول عمر :

وَوَجَدْتُ حوْضَ الحبِّ حِينَ وَرَدْتُه ... مرَّ المَذَاقَةِ طعْمُه كالْعَلْقَمِ (٤)

ويقول عنترة :

فبعثْتُ جَاريتى فقلتُ لها اذْهَبِى ... فتجسَّسِى أخْبَارَها لى واعْلَمِ (٥)

ويقول عمر :

فبعثْتُ جَاريتِى فقلْتُ لها: اذهبِى ... فاشْكِى إليها ما عَلِمتِ وسلِّمِى (٦)

ونجد بعض المعانى والألفاظ عند أكثر من شاعر من ذلك قول عنترة :

١- شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٩٣ وديوان عنتره ص ١٢
٢- ديوان عمر ص ٢٠٦
٣- الزوزنى ص : ٢٠٣ وديوان عنتره ص ١٥
٤- ديوان عمر ص ٢٣٠
٥- الزوزنى ص ٢١٠ وديوان عنتره ص ١٧
٦- ديوان عمر ص ٢٢٧

عُلِّقتُها عرضًا واُقتل قومَها   زعمًا لعَمْر أبيكِ ليس بمزعَمِ (١)

وقريب من هذا المعنى قول " الأعشى " ـ ميمون بن قيس ـ الذى قال فى محبوبتـــه :

عُلِّقتُها عرضًا وعَلِّقتْ رجـــلاً   غيرى وعُلِّق أُخرى غيرَها الرَّجلُ !

وعَلَّقتْه فتاةٌ ما يحاولُهـــــا   من أهلِها ميِّتٌ يهْذِى بهـا وهِـلُ

وعُلقتْنِى أُخَيْرىَ ما تلائِمنــى   فاجتمع الحبُّ حبًّا كلُّه تَبِـلُ (٢)

وقد راقت لعمر هذه الصورة فصاغها هكذا :

عُلِّقتُها ناشِئًا وعُلِّقتْ رجلاً   غيْرى غَـضَّ الشـبابِ كالغُصُـنِ

وعُلِّقتنى أخرى وعلّقهـــا   ناشئٌ يصيد القلوبَ كالشَّطَنِ (٣)

* * *

كما أخذ عمر من قول طرفـة بن العبـــد :

وتبْسِم عن ألمىْ (٤) كأنَّ منوَّرا   تخلل حُرَّ الرمل دِعْصٌ له نَدِى (٥)

قوله :

وتبْسُـمُ عن غـرٍ شتيتٍ نباتُـه   لَه أشـرٌ كالأُقْحُـوانِ المُنَـوِّرِ (٦)

* * *

ـ كما أخذ عمر عن الْخَنْسَاءِ قولهـا :

١- ديوان عنترة ص ١٢

٢- ديوان الأعشى : ٥٧ قافية رقم ٦

٣- ديوان عمر ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩

٤- ألمى : يعنى ثغرا أسمر اللثات

٥- شرح ديوان طرفه بن العبد ص ١٣

٦- ديوان عمر ص ١٠٤

يذكرني طلوعُ الشّمس صخراً ... وأذْكُره لكلِّ غُروبِ شَمْسِ (١)

فقال :

وتشتتُ الأهواءِ يَخْلِجُنى ... نحوَ العِراقِ ومطْلَعِ الشّمسِ (٢)

***

- كما أخذ عن النابغة فى قوله :

وقفتُ فيها أُصيلاناً (٣) أُسائلها ... عيتْ جواباً وما بالرّبعِ من أَحَدِ (٤)

فقال :

وقفتُ فيها طويلاً كى أسائِلها ... والدّار ليس بها عِلْمٌ ولا خبر (٥)

فالسؤال واحد عند الاثنين ، والجوابُ واحد أيضاً ، وهو العى عن الإفصاح !

وقال النابغة أيضا :

بمخضبٍ رخْصٍ كأنّ بنانَه ... عَنَمٌ يَكادُ من اللّطافةِ يُعقَدُ (٦)

وقال شاعرنا :

ومخضبٌ رخْصُ البَنانِ كأنّه ... عَنَمٌ ومُنْتَضِجُ النطاقِ وثيـرُ (٧)

١- ديوان الخنساء ص ٨٤

٢- ديوان عمر ص ٤٧٦

٣- أصيلانا : أى وقت العشى

٤- ديوان النابغة : ١٩

٥- ديوان عمر : ١١١

٦- ديوان النابغة : ١٤٧ ويلاحظ أن فى هذا البيت إقواء لأن قافية القصيدة كلها مجرورة وهذا البيت مرفوع

٧- ديوان عمر : ١٢٦

- وكلا الشاعرين استعمل القسم ليؤكد صدق كلامه ، وحين نوازن بين صيغة القسم عندهما ندرك المدى البعيد الذى ذهب إليه عمر فى اليسر والسهولة من ذلك قوله :

لا والذى أحرمَ العبادُ لــه ... بكل فَجٍ من حِجْـةٍ رُفَــقُ
والبُدْنِ إن نُزِّعتْ أجِلَّتُهـا ... بالخَيْفِ يغْشَى نُحُورَها العَلَقُ
ما باتَ عندى سرٌّ أضمِّنُــه ... إلا وفى الصدْرِ دونَه غَلَقُ(١)

ويقول النابغة ليبرأ مما نسب إليه :

فلا لعَمْـرُ الذى مسَّحتُ كعبتـه ... وما هُريق على الأنصاب من جَسَـدِ
والمؤمن العائذات الطيرَ تمسحها ... رُكبانُ مكةَ بين "الغيل" و "السعد"
ما قلتَ من سيىءٍ مما أتيتَ بـــه ... إذاً، فلا رفعتْ سوطى إلىَّ يدى(٢)

- وواضح فى عمل النابغة هذا التجويد الفنىّ الذى يتضح فى هذه المقابلة النفسية العميقة بين الطير العائذة برحاب الله فى مكة طلباً للأمن - والنابغة العائذ الذى لا يجد الأمن عن النعمان .. أما عمل عمر: فواضح فيه هذا التعبير اليومى المباشر الذى لا يقصد صاحبه إلى تجويد ، ولا تقوم عنده هذه المطابقة بين مادة القسم وحالته النفسية .. إنه لا يختار قسمه اختيارا بما يعكس جده الداخلى ، وإنما يسوق فى شىء من السرد الذى ألف الناسُ أن يُقسِموا به . (٣)

* * *

كما أخذ عن عروة بن حزام العذرى قوله فى محبوبته عفــراء :

١- ديوان عمر : ٤٥٧
٢- ديوان النابغة : ص ٧٨
٣- راجع تطور الغزل ص ٥٤٤

وإنى لتغشانى لذكراكِ روعةٌ   لها بين جسْمى والعظـامِ دبيبُ (١)

فقال عمر :

وإنى لتغشانى لذكركِ روعةٌ   يخِف لها ما بين كعْبى إلى قَرْنى (٢)

* * *

كما تأثر بزهير بن أبى سلمى الذى يقول :

إن الخليطَ أجدَّ البين فانفرقـــا   وعَلق القلبُ من أسماءَ ما عَلِقـا

وأخلفتك ابنةُ البكرى ما وعدتْ   فاصبح الحبلُ منهاً واهناً علِقا (٣)

فقالَ شاعرنا :

إن الخليطَ الذى تهوى قد ائْتمروا   بالبينِ ثم أجَدّوا البينَ فابْتكروا (٤)

كما أخذ عن كعب بن زهير من قصيدة البردة حيث يقول :

هيفاءُ مقبلةٌ عجزاءُ مدبرةً   لا يُشْتكى قصرٌ منهـا ولا طـولُ (٥)

فقال شاعرنا :

هيفاءُ مقبلةٌ عجزاءُ مدبرةً   تَخالُها فى ثيابِ العصْبِ دِينَارا (٦)

* * *

ويأخذ عمر عن عدى بن زيد فى كثير من المواضع ، منها : وصف الـدار وقد غير القدم رسومَها ، ولم يبق من آياتها سوى نؤى مثل خط بالقلم :

---

١ - ديوان عروة : ٧٢ ويروى لابن الدمينة أيضا

٢- ديوان عمر : ٢٩٥

٣- الأصبهانى جـ ١٠ / ٢٩٨ وديوان زهير ص ٧٢ وفيه وعلق القلب

٤- ديوانه : ١١٨

٥- كعب بن زهير ص ٦

٦- ديوانه : ١٢٠

لمن الدارُ تعفَّت بخيـــم　　　أصبحتْ غيَّرها طولُ القِـدَم
ما تَبينُ العينُ من آياتهـــا　　　غيرَ نُؤيٍ مثل خطٍ بالْقَلَمَ (١)

فيقول عمر مقتبسًا بعض الألفاظ والمعانى ومستعيرا البحر والقافية دون أن يوفق توفيق عدى :

لمن الدار كخـطٍ بالقلـم　　　لم يُغيِّر رسمَها طـولُ القِـدَم

وكان عدى بن زيد يهوى - فيما يَروُن - هند بنت النعمان بن المنذر وقال فيها شعرا كثيرا منه قصيدة يقول فيها :

يا خليلَىَّ يسِّرا التعسيرا　　　ثم رُوحـا فهجِّـرا التهجيـــرا
عرِّجا بى على ديارٍ لهندٍ　　　ليس ان عجِّتُما المطىَّ كثيرا (٢)

وإذا بصاحبنا عمر يتغزل بصاحبته التى يسميها هندا ويأخذ عن عدى المعانى ، وبعض الألفاظ والبحر والقافية ، فيقول :

باتَ صحْبى وباتَ نومى عسيرا　　　أرْقبُ النجْم موْهِناً أن يغـورا
إذ تذكرتُ قولَ هند لِترْبيـــ　　　ـــها ورحْنا نيمِّـم التجميـــرا
قُلن باللهِ للفتى عُجْ قليـــلاً　　　ليس إن عُجتَ للعتاب كثيـــرا

وفيها يقول :

يا خليلَىَّ هجِّـرَا تهْجِيـــرَا　　　ثم رُوحا واحكِما لى المسِيرَا (٣)

وعدىّ يقول فى صاحباته :

بنـات كــرامٍ لم يُربن بضــرَّةٍ　　　دمــىً شــرقاتٍ بالعـبير رَوادِعــا

١- عمر بن أبى ربيعة جـ ٣ / ٥١٣ - ٥١٤ والأغانى جـ ٢ / ١٤٩
٢- الأغانى جـ ٢ / ١٢٨
٣- ديوانه : ١٣٧

يسارقنَ مِ الأستار طرفًا مفتّراً   ويُبرزن من فَتْق الخدور الأصابعا (١)

ولعمر كثير من مثل هذا القول فى صاحباته ، ولو لم نجده فى شعر عدى لقلنا هو من شعر عمر ، وما أكثر وجوه الشبه بين الاثنين ، فكلاهما من الأمراء وكلاهما أحبَّ اللهو والمجون ، وإنما الفرق بينهما هو أن عديا كان يرى صاحباته فى البيع أيام الشعانين والفصح ، وكان عمر يتعرض إلى صاحباته أيام الحج فى مكة وفى مواسم العقيق حين يكون فى المدينة .

والخلاصة أن عمر قد تأثر بالشعراء السابقين فكانت أشعارهم بمثابة جذور قوية تعهّدها عمر حتى أينعتْ ، فكان قِطافُها قصةً شعريةً ، واضحة المعالم بينةَ القسمات ، وأرى أن هذه الكثرة من الأشعار التى حكاها عمر لتُوهِن حجةَ من شكك فى صحة الكثير من الشعر الجاهلى .

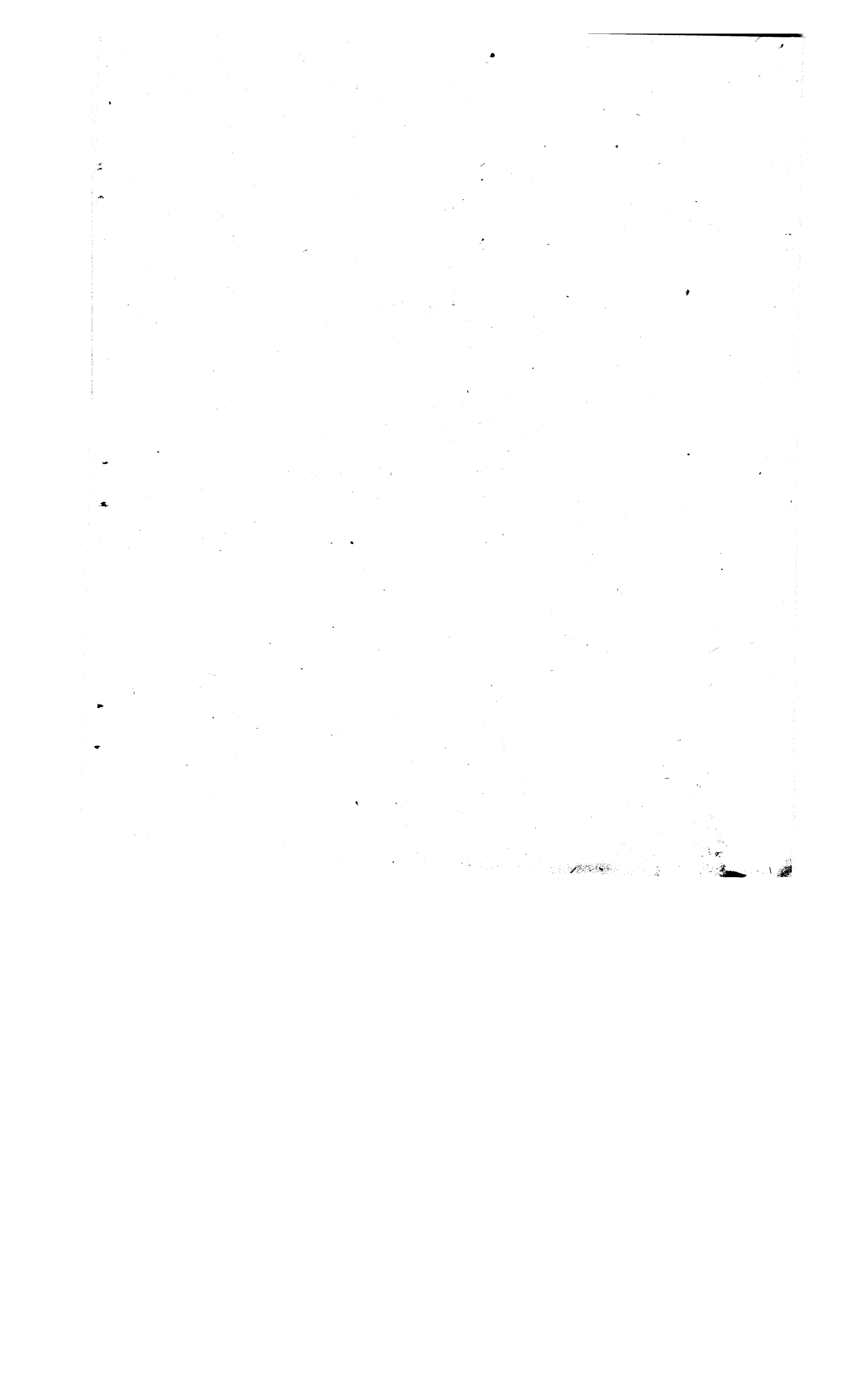
***

١- الأغانى جـ٢ / ١٥٠

الفصل الثاني

آراء معاصريه ..

وتفاعلهم بشعره !!



- ١ -

تسرب شعر عمر إلى المجتمع الحجازى وغيره. وتحدّث به الصغير والكبير. ولحنته المطربات أنغاما - هى نبضات أفئدة المحبين - وتتابعتْ أخبار الرواة بآراء المعاصرين لابن أبى ربيعة، وهم قد تأثروا به :

بينه وبين ابن عباس : روى الأغانى عن المدائنى من طريق محمد بن سلام أن ابن عباس - رضى الله عنه - كان فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق، وناس من الخوارج، فأقبل ابن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين مورّدين فجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال : " أنشدنا " فأنشده : " أمن آل نعم ... " حتى أتى على آخرها، فأقبل عليه نافع ابن الأزرق فقال : الله يا ابن عباس ! نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمسُ عارضتْ　　فيخزى، وأما بالعشىّ فيخسر

فقال : " ليس هكذا قال ... " وأنشده البيت على صحته، ثم القصيدة برمتها، وكان قوى الحافظة، فلامه بعض أصحابه فى حفظها فقال : " إنّا نسْتجيدها " وكان يسأل كثيرًا عن عمر فيقول : " هل أحدث هذا المغيرىّ شيئاً بعْدَنا ؟ ". (١)

- ٢ -

وعرض يزيد بن معاوية جيش الحرة فمر به رجل من أهل الشام معه تُرْس

١- الأغانى جـ١ / ٧٢ والكامل للمبرد جـ٢ / ١٦٨

خلَق (١) سمج فنظر إليه يزيد وضحك وقال له :

" ويحك ! تَرْسُ عمر بن أبى ربيعة كان أحسنَ من تُرْسِك "

يريد قول عمر :

فكان مِجنّى دونَ من كنتُ أتّقى ثلاثُ شُخوصٍ كاعبانِ ومُعْصِرُ (٢)

- ٣ -

- ويمتد تأثير عمر فى معاصريه ليشمل الخليفة " عبد الملك بن مروان " الذى قال لعمر : " قد علمتْ قريش أنك أطولُها صبوةً ، وأبعدها توبة ، ويحك ! أما لك فى نساء قريش ما يكفيك من نساء بنى عبد مناف ؟ ألست القائل :

نظرتُ إليها بالمحصَّبِ من منىً ولى نَظَرٌ لولا التحرُّج عــازمُ

فقلتَ : أصبح أم مصابيح راهب بدتْ لك خلف السَّجف أم أنت حالمُ

بعيدةُ مهوى القُرْطِ إما لنوفلٍ أبوها وإمّا عبْدُ شمسٍ وهاشمِ

فقال : يا أمير المؤمنين ، فإن بعد هذا :

طَلبْنَ الهوىٰ حتى إذا ما وجدْنَه صدرْنَ وهنَّ المسلماتُ الكرائمُ

فاستحيا منه عبد الملك ، وقضى حوائجه ووَصله ! (٣)

وأرى ما ذَهَب إليه الدكتور فرهــود ، حيث رأى أن البيت الأخير من

١- الترس : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه والخلَق : بفتح اللام : البالى ، يقال للمذكر والمؤنث

٢- الأغانى جـ ١ / ٨٣

٣- زهر الآداب جـ ١ / ١٢١

جنس الأبيات فالشاعر جعل نساء البيت الحاكم يطلبن الهوى ولا يرجعن عنه صاديات ! بل يرتوين منه ، ويتعاطينه ويذقنه .. أما ما أرضى عبد الملك فهو وصف نساء بيته بالمسلمات الكرائم وهو وصف يشعر - من طريق ما - أن تناولهن الهوى يختلف عن تناول غيرهن . ولعمّرى لقد ندَّ عن ذكاء عبد الملك أن لا عبرة بطريقة تناول الهوى . (١)

— ٤ —

وروى الأصبهانى أن ابن أبى ربيعة حجَّ فى سنة من السنين فلما انصرف من الحج ألفى الوليد بن عبد الملك وقد فُرش له فى ظهر الكعبة وجلس إليه ، فقال له : أنشدنى من شعرك ، فقال : يا أمير المؤمنين أنا شيخ كبير وقد تركت الشعر ، ولى غلامان هما عندى بمنزلة الولد وهما يرويان كل ما قلت وهما لك ، فقال : ائتنى بهما ، ففعل ، فأنشده قوله :

أمن آل نعم أنتَ غادٍ فمبكر ...

فطرب الوليد واهتزَّ لذلك ، فلم يزالا ينشدانه حتى قام ، فأجزل صلته ورَدَّ الغلامين إليه . (٢)

— ٥ —

كما روى الأغانى قول عروة بن الزبير : يا أبا الخطاب ! أو لسنا أكفاءاً وكراماً ومسايرتك ؟ فقال : بلى بأبى أنت وأمى ! ولكنى مُغْرىً بهذا الجمال أتبعه حيث كان ثم التفت إليه وقال :

---

١ - اتجاهات النقد الأدبى العربى د . فرهود ص ٩٣ - ٩٤
٢- الأغانى جـ١ / ١١٩

إنى امرؤٌ مُولَعٌ بالحُسْنِ اتْبعه   لا حظَّ لى فيه إلا لذةَ النَّظرِ

فجعل عُروة يضْحك من كلامهِ تعجبًا منه . (١)

- ٦ -

وقد شعر القدماء بأن عمر فريد بين الشعراء فى وصف الحوار أو سرده وقد قارنوا بينه وبين جميل بثينة واعتقدوا أن جميلا كان يعارضه ! فقد قال أبو عبد الله الزبير عن عمه مصعب : " كان عمر يعارض جميلا فإذا قال هذا قصيدة قال هو قصيدة مثلها " ويرون أن عمر أشعر فى الرائية : " أمن آل نعم أنت غاد فمبكر " والعينية : " ألم تعرف الأطلال فالمتربعا " وأن جميلاً أشعر فى اللامية :

لقدْ فَرِح الواشونَ أن صرمتْ حبلى   بثينةُ أو أبدتْ لنا جَانبَ الْبُخلِ

ويعتقدون أن لكل منهما : " بيتًا نادراً طريفًا " . فأما بيتُ عمر عندهم فهو:

فقالتْ : وأرختْ جانبَ الستر بيْنَنا   معى فتكلَّم غيرَ ذِى رقْبةٍ أهْلِى

وأما بيت جميل فهو :

خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما   قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى (٢)

ومما يدل على تأثر "جميل" وإعجابه بعمر ما رواه الزبير بن بكار - قال : " شهدت عمر بن أبى ربيعة وجميل بن معمر وقد اجتمعا بالأبطح ، فأنشده عمر قوله :

١- الأغانى جـ١ / ١٤٧

٢- راجع الأغانى جـ١ / ١١٥ - ١١٦

جرى ناصحٌ بالوُدِ بيني وبيْنَها   فقرَّ بَنى يومَ الحصاب إلى قَتْلى (١)
فلما توافقنا عرفتُ الذى بها   كمثل الذى بى حذوكَ النعلَ بالنعْلِ

إلى قوله :

فسلمتُ واستأنَسَتْ خِيفةَ أن يرى   عدوٌّ مكانى أو يرى كاشِحٌ فِعْلى
فقالتْ وأرختْ جَانِب الستر إنما   معى فتحدثْ غير ذى رقْبةٍ أهْلِى
فقلتُ لها : مالى بهم من ترقبٍ   ولكن سـرِّى ليس يحْمِلُه مِثْلِى

فقال جميل : " هيهاتَ يا أَبا الْخَطَّاب ! لا أقول والله مثل هذا ، سجيسَ الليالى (٢) والله ما يخاطبُ النساء مخاطبتك أحد ثم قام مشـــمِّرا " (٣)

- ٧ -

كما روى الأصبهانى طرفاً من تلك الموازنة بينه وبين جميل فى مجلس عبد الملك حيث قال لأصحابه ذات ليلة : أى بيت أغزل ؟ قال بعضهم: قول جميل :

يموت الهوى مِنِّى إذا ما لقيتُها   وَيحْيَـا إذا فارقتُها فيعُــودُ

وقال آخر : قول عمر بن أبي ربيعة :

كأننى حين أمْسى لا تكلِّمنـــى   ذُو بغيةٍ يبْتَغِى ما ليسَ مَوْجُودَا

١- الحصاب : موضع رمى الجمار فى مناسك الحج
٢- سجيس الليالى : كلمة تستعمل للتأييد ، بمعنى أبدا .
٣- وفيات الأعيان جـ ١ / ٤٨١ - ٤٨٢ والأغانى جـ ١ / ١١٦ . وروى الزجاجى فى أماليه ص ٨٤ مثل هذا الموقف بيد أن القصيدة مختلفة

فقال الوليد : حسبك والله بهذا (١)

- ٨ -

وقد رُوى أن الفرزدق سمع شيئا من نسيب عمر فقال : " هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته ، وبكت الديار ، ووقع هذا عليه " (٢)

كما رُوى أن الفرزدق زار عمر فى الحِجاز فسمع قطعةً من قصيدته التى يقول فيها :

فلما التقينَا واطمأنَّتْ بها النَّوَى ... وغُيِّبَ عَنَّا مَنْ نخافُ ونُشْفِقُ
أخذتُ بكفِّى كفَّهَا فوضَعْتُها ... على كبدٍ منْ خشيةِ البين تخفِقُ
فقالتْ لأتراب لها حين أيقنتْ ... بما قد ألاقي: إنَّ ذا ليس يَصْدُقُ
فقلن أتبكى عينُ مَنْ ليس مُوجعًا ... كئيبًا ومَنْ هو سَاهِرُ الليل يأرَقُ
فقالتْ: أرى هذا اشتياقاً وإنما ... دَعا دمْعَ ذى القلب الخلىّ التشوُقُ
فقلنَ شَهِدْنا أن ذا ليس كاذبا ... ولكنه فيما يقول مُصَدَّقُ
فقمْنَ لكى يُخلِينَنَا فترقرقتْ ... مَدامِعُ عَيْنَيهَا فظلّتْ تَدَفَّقُ
وقالتْ : أما ترْحَمْنَنى أنْ تَدعْنَنى ... لَدَيهِ وهو فيما عَلِمْتُنَّ أخْرَقُ
فقلن: اسكتى عنَّا فغيرُ مُطاعةٍ ... لَهُو بكِ مِنَّا فاعْلَمِى ذاكِ أرْفَقُ
فقالت : فلا تبرحْن ذا السترَ إننى ... أخافُ وربِّ البيتِ منه وأفرَقُ (٣)

قالوا ، ولما انتهى عمر إلى قوله : " وقمن لكى يخلينا فترقرقت .. " صاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس : لا تُحْسِن

١ - الأغانى جـ١ / ١١٤
٢- المرجع نفسه ص ١١٤
٣- الديوان : ٤٤٦

والله الشعراءُ أن يقولوا مثل هذا النسيب ، ولا أن يرقُوا مثل هذه الرقية ، وودعه وانصرف . (١)

فالباحثُ يَلْحَظ أن ما تفوَّق به عمر على معاصريه هو نسج حواره في مرونةٍ ومَهارة بحيث ينطق بكلام المرأة الحجازية ويصور أسلوبها !
واذا نظرنا إلى آراء الفرزدق وجميل فى صاحبهما : تبين لنا أن ابن أبى ربيعة لم يصل إلى منزلته الادبية العالية إلا بشعره القصصى : " فقد رأى فيه الناس شيئاً جديدًا ليس فى غيره ، ولا سيما مخاطبته النساء ، فافتتنوا به وراقَهم أسلوبه ، ونستطيع أن نعلم ما كان لهذا الشعر من التأثير فى نفوس النساء حتى أصبحوا يخافون عليهن منه ويمنعونهن من حفظه وروايته " (٢)

ولعلنا نلمس أثر هذا الشعر ، ومكانة صاحبه فى عصره أن قلَّده جماعة من الشعراء ، سلكوا طريقته وعُرفوا بتقليده : منهم : الاحوص والعرجى واسماعيل بن يسار النسائى وغيرهم كما امتدَّ أثره إلى : " شعراء العصور اللاحقة كالعباس بن الاحنف وبشار بن برد وأبى نواس وغيرهم " . وفى عمر وصاحباته يقول مروان بن أبى حفصة :

وتركْنَ لابن أبى ربيعةَ منْطِقاً … فيهن أصبحَ سائراً محمولا (٣)

***

١ – الديوان : الأغانى جـ١ / ١٤٧ – ١٤٩
٢– أبهاء العرب ص ٣٠٩
٣– شعر مروان بن أبى حفصة ص ٧٨

- ٦ -

بينه وبين الأحوص :

وقد حدثنا ابن دريد عن ابن أخى الأصمعى عن عمه قال : لقى عمر ابن أبى ربيعة الأحوص وقد أقبل من عند " عبلة " فقال له : يا أحوص: مازودتَ صاحبَتك ؟ .. قال فأنشدنى :

ألا ياعبلَ قد طال اشتياقى ... إليكِ وشفّنى خوفَ الفُراقِ

إلى أن قال :

حلفْتُ لكِ الغداة فصدّقينى ... بربِّ البيتِ والسّبعِ الطِّباقِ

لأنتِ إلى الفؤادِ أشدُّ حباً ... من الصّادِى إلى الكأسِ الدّهاقِ

فقال له عمر : ما تركتَ لى شيئا ، ولقد أغرقتُ فى شعرك ، قال : كيف أغرقتَ فى شعرى وأنت تقول :

إذا خَدَرتْ رِجْلى أبُوحُ بذكْرِها ... ليذهبَ عن رِجْلى الْخُدُورُ فيذْهبُ

فقال : الخدور يذهب والعطش لا يذهب (١)

وهكذا كان التفاعل واضحاً بين عمر والأحوص !

- ٧ -

أما بالنسبة للشاعر " العرجى " فقد روى أنه : لما مات ابن أبى ربيعة نُعِىَ لامرأةٍ من مولدات مكة ، وكانت بالشام فبكت وقالت : من لأباطح مكة ؟ ومن يَمْدح نساءها ، ويصف محاسنهن ، ويبكى طاعتهن ؟ فقيل لها : قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان - يعنى "العرجى" - على

١- الموشح للمرزبانى / ٣٦١

طريقته ، فقالت : أنشدونى له ، فأنشدوها :

وقد أرسلتْ فى السرِّ ليلى بأن أقِمْ   ولا تقْرَبَنَّا فالتجنُّبُ أجْمَـــلُ
لعلَّ العيونَ الرامِقَات لوصْلِنَـــا   تكـذِّبُ عنا أو تنام فتغفَـــلُ
أناسٌ أمِنَّـــاهم فبثـوا حديثنـــا   فلما كَتَمْنا السرَّ عنهـم تقوَّلـوا
فما حفِظوا العهدَ الذى كان بيَنَنَــا   ولا حين همُّوا بالقطيعة أجْملُوا

فتسلت وقالت : هذا أجل عوض ، وأفضل خلف ، فالحمد لله الذى خلف على حرمه وأمته مثل هذا (١)

ولا نعجب لمثل هذه الطرائف التى روتها الرواة ، ولكن يهمنا دلالتها على مدى التأثر الذى تركه عمر فيمن عاصره أو جاء بعده !

والباحث يلحظ فى أبيات الأحوص والعرجى تأثراً واضحا بالنهج القصصى والحوار الذى أشاعه عمر ، كما نلاحظ تأثرهما بجرأة عمر وصراحته بيد أنها لا تنتهى إلى إباحية ! !

— ٨ —

ومن الممتع للتدليل على أثر عمر فى بعض الشعراء الذين لحقوه أن نذكر أبياتا من قصيدة " لاسماعيل بن يسار " فى فتاة اسمها " كلثم " ومطلع أخرى فى فتاة اسمها " هند " يقول فى المطلع :

١- زهر الآداب جـ ٢ / ٥٩٧ - ٥٩٨

ما على رسم منزل بالجناب ... لو أبانَ الغداةَ رجعُ الجواب (١)

وقد قال عمر قبله :

ما عَلى الرّسم بالبليين لـو ... مُ بين رجع التّسليم أو لو أجابا

أما قصيدته فى " كلثم " فمنها :

كُلثمُ أنتِ الهمُّ يا كُلْثـم ... وأنتمُ دائى الذى أكتـم

أكاتـمُ الناسَ هـوىً شفّنـى ... وبعضُ كتمانِ الهوى أحـزمُ

قد لمتِنى ظـلماً بلا ظِنـةٍ ... وأنتِ فيما بيننا ألـوَمُ

أوفي بما قُلْتِ ولا تنـدمى ... إن الوفىّ القولَ لا ينـدمُ

آية ما جئتُ على رقبـةٍ ... بعد الكرى والحىُّ قد نوّمـوا

أخافتُ المشىَ حَذار العِـدا ... والليل داجٍ حالكٌ مُظلـمُ

ودونَ ما حاولت إذا زرتكـم ... أخوكِ والخالُ معًا والحَـمُ

وليس إلا اللهُ لى صـاحبٌ ... إليكمُ والصارمُ اللّهـذَمُ

حتى دخلتُ البيتَ فاستذرفتْ ... من شَفَقٍ عيناكِ لى تسْجُـمُ

ثم انجلى الحزنُ وروعاتُـه ... وغُيّب الكاشحُ والمبْـرِمُ

فبتّ فيما شئتُ من نعمـة ... يمنحنيها نحرُها والفـمُ

حتى إذا الصبحُ بدا ضـوءُه ... وغارت الجوزاءُ والمـرزمُ

خرجتُ والوطءُ خفىٌّ كمَـا ... ينسابُ من مكْمنهِ الأرقَـمُ (٢)

فالقصيدة لا تختلف عن فن عمر فى تصويره لزيارته صاحبته ومفاجأته لهـا واستنكارها أولا ثم اطمئنانها واستسلامها ، وقضائه الليلَ معها بل إنه

---

١ - الأغانى جـ ٤ / ٤١٠.

٢- الأغانى جـ ٤ / ٤١٦ - ٤١٧

يشبه خروجه من بيتها وسيره متسللاً كما شبه عمر دخولَه إلى خِباء صاحبته . ! وبالتأمل في مطالع الشعر القديم والتى مرّت بنا ومطالع عمر نجد فرقا واضحا ، فعمر ، لا يكاد يضعها حتى يتخلص من طريق القدماء فيها لينهج نهجاً جديداً عرف به ، ولنتأمل قوله :

هيّجَ القلبَ مَغَانٍ وصِيَرْ ... دارساتٌ قد علاهنّ الشّجَرْ
ورياحُ الصّيفِ قد أزرتْ بها ... تنسِجُ التربَ فنوناً والمَطَرْ
قُلْتُ فيها ذاتَ يومٍ واقفاً ... أسألُ المنزلَ هل فيه خَبَرْ
للتى قالتْ لأتراب لها ... قَطَفٍ فيهنّ أنسٌ وخَفَرْ
إذ تمشينَ بجوٍ مُونِقٍ ... نَيّرِ النّبْتِ تَغْشَاه الزّهَرْ

إنه سرعان ما يتخلص من الوقوف على الأطلال الدارسة التى أزرتْ رياح الصيف بها بالسؤال عن صاحبة الطلل !

- وأطلال عمر لم تكن كأطلال الجاهليين التى حدثونا عنها ، وانما هى صفحة مورقه لا تحمل شيئاً من الجو النفسى الأليم للأطلال .. إنها لوحة لمغان تكسوها الأشجار وتوشى تربها الأمطار ، وتؤنسها الأتراب المنطلقات تمهيدًا لرؤية الفارس البطل المتغزل بنفسه الذى يشبه القمر:

قُلْن تعرِفنَ الفتى قلن:نعم ... قد عرفناه وهل يَخْفى القمر ؟

-٩-

ويمتدُّ الإعجابُ بقصةِ عُمر إلى العصر الحديث فنرى تأثّرَ أمير الشعراء فى بعض مقدماتِه الغزلية بابن أبى ربيعة فى نهْجِه القصصىّ المعتمد على

الحوار من ذلك قوله :

وليل كأنَّ الحشرَ مطلعُ فجـــره   تراءتْ دمُوعى فيه سابقةَ الْفَجــر
طرقتُ حِماها بعدَ ما هبَّ أهلُهـا   أخوضُ غمارَ الظنِّ والنظرِ الشَّزر
فمـا راعــنى إلا نســاءٌ لقيننـى   يبالِغن فى زجْرى ويُسْرفن فى نَهرى
إليكنَّ جاراتِ الحِمى عن ملامَتى   وَذرْنَ قضاءَ اللهِ فى خَلْقِه يجــرى
فسـاءلْنها : ما اسمى ؟ فسَمَّتْ فجئْنَنى
يقُلْنَ : أماناً للمذارى من الشِّعر
أخذتَ بحظٍ من هَوَاها وبينهـــــا
ومنْ يهْوَ يعْدِل فى الوصالِ وفى الهجرِ (١)

ففى هذه المقدمة الغزلية محاكاةٌ لعمر بن أبى ربيعة فى رائيته (أمن آل نعم) فى الوزن والقافية والموضوع مع اختلاف فى حركة الروى ، وبالتأمل فى هذه الأبيات نجد مشهدًا يحكى إحدى مغامرات " شوقى " مع المحبوبة فى جنح الليل وقد طرق حماها بعدما هب أهلها وهو فى ذلك متأثر بابن أبى ربيعة فى قوله :

فبتُّ رقيبًا للرفاق على شَفـَــا   أحاذِرُ منهم من يطوفُ وأنْظُـــر
إليهم متى يستمكن النومُ منهمُ   ولى مجلسٌ لولا اللبانةُ أوعرُ (٢)

ويقول شوقى :

* فما راعنى إلا نساءٌ لَقِينَنَى .. *

ويقول ابن أبى ربيعة :

١- الشوقيات جـ ٢ / ١٢٦ - ١٢٧
٢- ديوان عمر ص ٩٥

* فما راعنى إلا مناد ترحلوا * (١)

فهو اقتباس واضح مع اختلاف فى فاعل الترويع .

وحارات محبوبة شوقى يبالغن فى لومه :

فما راعنى إلا نساءٌ لقينَنى ... يبالِغْن فى زجْرى ويُسرفن فى نَهْرى

وهذا المعنى سبق إليه عمر فى قوله :

وَقُلْنَ أهذا دأبكَ الدَّهرَ سادرًا ... أما تستحى أو ترْعَوى أو تفكر ! (٢)

ويرد شوقى على اللائمات معللاً بأن الحبَّ قضاء لا مفرَّ منه !

* وذرن قضاء الله فى خلقه يجرى *

وقد سبق إلى هذا المعنى عمر فى قوله من قصيدة أخرى :

ما أنا والحب قد أبلغْنى ... كان هذا بقضاءٍ وقــدر (٣)

وصاحبات محبوبة شوقى يسألْن عن اسمه فتسميه :

* فساءلنها : ما اسمى ؟ فسمّتْ : فَجشَّنى *

ويقول عمر فى قصيدة أخرى :

قُلن تعْرفن الفتَى قُلْنَ نعم ... قد عَرَفْناهُ وهَلْ يَخْفَى الْقَمَرْ؟ (٤)

وفى قصيدة أخرى :

قلتُ أهلاً أنتمُ بغيَتُنــا ... فتسمَّينَ فقالتْ : أنا هِندْ (٥)

* * *

---

١ - ديوان عمر ص ٩٨
٢- ديوان عمر ص ١٠٠
٣- ديوان عمر ص ١٤٨
٤- ديوان عمر ص ١٥١
٥- ديوان عمر ص ٣٢٦

وفى العصر الحديث أيضا نجد أحد الباحثين (١) يعجب بالحوار عند عمر ، فيؤلف قصة تحمل طابعا مسرحيا - على غرار قصة عمر - وتَخَيَّل فيها عمر فى الآخرة بعد البعث مع صاحباته ، وتخيل فيها منظر الفردوس فى الصباح وما هى عليه من حدائق وبساتين ، وقد زينت أجمل زينة احتفالا بقدوم عمر إلى الجنة بعد إطلاق سراحه من النار ، وجماعات الخالدين وأكثرهم من نساء الإنس فى طرب وحبور حيث تسمع موسيقى وأنغام وأصوات موكب قادم على البعد ، ويرى من جانب المسرح بعض من حور الجنة وقد اجتمعن لمشاهدة الموكب (١)

١- هو الأستاذ محمد فهمى ، والمسرحية بعنوان : دون جوان العرب .

٢-المقتطف م ١٠٨ جـ ٣ ص ١٨٩ - ٢٠٣ عدد مارس ١٩٤٦ وهذا جزء من المنظرالأول :

- هنا يصل الموكب الى ربوة من ربى الخلد حيث يجلس عمر بن أبى ربيعة على إحدى الأرائك تحت ظلة من ظلل الفردوس وقد أقبل عليه حبيباته فى الدنيا للسلام)

تتقدم إحداهن - سلام على ابن ربيعة :

عمر (متهللا) - أهلا هند . أنت هنا ؟ شكراً لله ... ما كل هذا الحسن ؟ أَتُشْعِلينها أيضاً فى الخلد فتنة ؟ !

هند « ضاحكة » - فى كل مكان ... هذه رسالتنا

أخرى - سلام على ابن ابى ربيعة

عمر - والثريا ؟ أهلا بربة الدلال . ما أسعدنى ! !(ثم متنهدا) إيه ثُريا القلب !

أخرى - سلام على المغيرى !

عمر - يا مرحبا بنعماى ... سَلِمت ودام سِحر لحاظِك !

عائشة - حل الربيع بالفردوس يا أبا الخطاب .

عمر - أهلا أهلا بربيع الحسن وفتنة البدو والحضر !

عائشة «ضاحكة» - هكذا ؟ ! . مازلت أنت هو أنت ! ... ليس فى الخلد مكان لشباك إغرائك ! ؟

عمر(باسما) - بل فى كل مكان حيثما يوجد الحسن « ثم ضاحكا » هذه رسالتنا ..!! (عمر ملتفتا الى بعيد ثم مناديا) - أقبلى أقبلى ياحبابة ما أكثر وفاءك فلقد رويت التراب بدموعك حزنا على فراقى الدنيا .

فى الجانب الآخر من المسرح :

حورية (بتهكم) - هكذا كان شأنهن فى الدنيا

حورية - وبهذا كن يستثرن أقوى غرائز الرجال

حورية - هيا نجرب ذلك هنا .

حورية - لم يأمرنا به الله .

حورية - الله أمرنا أن نمتع الخالدين وهذا مما يزيدهم متعة .

حورية - ولكنه شىء جديد . ربما لو فعلناه خالفنا إرادته سبحانه !

وهكذا يتأكد لنا الإعجاب والتأثير بالقصة والحوار فى شعر عمر !

— ١١ —

وبعد : فأرى سؤالا يطرح نفسه :

هل حقا كان فى عمر كل ما ذكر ، أم أن القدماء قد عودونا أن يقولوا

ويستمر الحوار إلى أن يقتطعه صوتُ حبَّابة التى بدأت تغنّى بشعر عمر :

ما بال قلبك ما يزال يهيجه ... ذكر عواقب غبهن سقـــام
ذكر التى طرقتك بين ركائب ... تمشى بمزهرها وأنت حرام

« ستار »

المنظر (٢)

(تسمع موسيقى ساحرة بضع لحظات قبل رفع الستار ثم يرتفع الستار قليلا قليلا (والموسيقى تعزف) عن بهو بديع فى فيلا جميلة وسط خمائل الجنة حيث يشاهد عمر بن أبى ربيعة فى جماعة من أصحابه جالسين فى مرح وحبور فى مجلس شراب أمامهم الكؤوس والزهور والرياحين وحولهم الولدان المخلدون فى ملابس زاهية فاتنة يحملون الأباريق مرصعة بالجواهر واليواقيت ويرى فى صدر البهو مسرح تجلس عليه الفرقة الموسيقية تعزف ألحانها وحبابة محتضنة عودها حتى ينتهى العزف)

الجميع (فى تهليل) ـ بديع ! بديع ...
أحد الجالسين لآخر ـ لقد أضفى قدوم ابن أبى ربيعة على الخلد فتنة وأى فتنة !
ثان ـ لقد كان احتفالهن بقدومه الاسبوع الماضى رائعا
ثالث ـ سيكون احتفالنا به اليوم أروع !
آخر ـ لقد بدأت حبابة !

(حبابة تبدأ تغنى من شعر ابن أبى ربيعة :)

كدت يوم الرحيل أقضى حيــاتى ... ليتنى مت قبل يوم الرحيـل
ما أطيق الكلام من شدة الوجـــ ... ـد ودمعى يسيل كل مسيـل ...

(الجماعة يبدون إعجابهم الشديد)

أحدهم ـ إيه يا حبَّابة .. أسعدينا ..
ثانٍ (وقد مدّ ذراعيه موجها إليها الخطاب) ـ بالله يا ساقى الأرواح (حبابة تلتفت إليه) روى ظماءك ! .
حبابة (تبتسم وتجيب بانحِناءة خفيفة برأسها) ـ ...

(وبعد لحظة تعود الفرقة للعزف فتغيّر حبابة اللحن وتغنى من شعر ابن أبى ربيعة)

كتبت اليك من بلـدى ... كتاب موله كمــــد
كئيب واكف العينـــ ... ـين بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشـوق ... بين السحر والكبـــد
فيمسك قلبه بيـــد ... ويمسح دمعه بيـــد

(ثم يسدل ستار مسرح البهو بينما الجماعة يبدون الإعجاب الشديد

فى كل شاعر مثل هذا ؟ الواقع : أن هذا الاجماع على الإعجاب بعمر نكاد لا نراه عند القدماء لغير عمر . لقد فرض عمر نفسه على كثير من الادباء والنقاد والشعراء المتأخرين ويبقى أثره فى الأجيال التى تلته

(ولا نكاد نرى الآن كتاباً لاديب أو مؤرخ أو معجماً واسعاً الا وقد ضمن شيئا من شعر عمر . حتى اذا جاوز الادب العربى عصر الظلمات وانبثق فجر النهضة الحديثة لم يفت العلماء من عرب ومستعربين أن يلتفتوا إلى عمر . ولعل أول من تنبه اليه مستشرق انكليزى باسم " بلكريف " فكتب رسالة عنه وترجم شيئا من شعره قبل سنة ١٨٧٢ . كما أعجب به روكرت الالمانى كما ترجم له " بول شفارز " الألمانى خمس قصائد ونشرها سنة ١٨٩١ ثم نشر كل ديوانه بين عام ١٩٠١ ، ١٩٠٩ م) (١)

والخلاصة :

أن الخطوة الكبرى التى خطاها عمر بالشعر العربى هى أنه أشاع فيه روح القص ، وتوسع فى الرسائل والحوار ، ونشر فى مقطوعاته نكهة الحكاية ، وعبَّر فيها عن الأحداث والوقائع هذا التعبير المباشر القريب !

والجديد الذى حمله عمر لهذا القص أو أراد إشاعته فى الحياة الفنية العربية (إنما هو الانطلاق فى إنتاج الأثر الأدبى من هذه الجزئيات أو الأحداث التى تعرض للشاعر أو التى يتخيل أن تعرض

---

١ - راجع المقتطف م ٩١ جـ ١ / ٤٣

لمثله .. فهو لا يريد أن يرتفع عن هذه الأحداث ليستخلص منها حكمته صنيع زهير ، ولا أن يسمو فوقها ليتحدث عن انطباعاتها وآثارها فعل العذريين ، وإنما أراد أن يتحدث عن الأشياء وآثارها فى نطاق الواقع أو الواقع المتخيل ، وفى نطاق من الأثر النفسى ، كما أراد أن يوائم بين الحياة النفسية - من حيث هى أحاسيس ومشاعر ورغبات ، والعمل الفنى من حيث هو تعبير عن ذلك كله ! كما قدر لعمر أن ينتقل بشعره القصصى خطوة فسيحة فى طريق الحوار ، وكثرة الجزئيات التى كان يقف عندها وينطلق منها بكثير من الطرافة والجدة وبكثير من المرح والخفة كما ساعده هذا الخيال التركيبى على أن يلتقط الأحداث وأن يغنيها بتصوره وأن يصوغها هذه الصياغة الخاصة (١)

***

١- راجع تطور الغزل ص ٥٦٨

" خـاتـمـــــة "

أصبح شعر الغزل فى عصر ابن أبى ربيعة هو المستروح الوحيد للناس فكان بمثابة السينما والمسرح - فيما بعد - وكان الحديث عن المرأة والتشبيب بها لا يعابه أحد .

وابن أبى ربيعة أسبق الشعراء إلى التخصص الذى نادت به النهضة فى شتى العلوم ، لقد تخصص فى شعر الغزل والقصة الغزلية فعكف على وصف المرأة أو مدحها .

وقد لاحظت أن عمر كان يقصد بالإبداع فى وصف النساء أن يغرهنّ بالثناء وأن يصل إلى قلوبهن ، وقاده ذلك إلى وصف شىء من ذكر مجالـــس اللهـــو .

وما عرف فى العربية شاعر استطاع أن ينسج من حياته قصة حب كابن أبى ربيعة ! حيث استجابت فنيته الشاعرة لنزعة التجديد والحضارة الجديدة فى عصره ، وصداها فى العواطف والوجدان ، فنهض بتمثيل ذرات أمواجها !

وقد اختلف الباحثون فى عمر ، ورأوا فيه رأيين متناقضين :

* فذهب بعضهم إلى أن حبه كان عفيفا .
* وذهب فريق أخر إلى أنه كان صاحب عبث وفجور بل غالى بعضهم فرأى أن عمر لا يعرف الحب ، وأن حبه كان جسديا ..

وكلا الرأيين لا أستريح إليه ، فقصة عمر لم تسلم من الوصف

الجسدى الدقيق ، وهذا ما يجعلنى لا أستريح للرأى الأول .
وعمر وإن كان قد أحب غير واحدة فذلك لا يعنى أنه صاحب فجور وعبث أو أنه لا يعرف الحب ، كما أن صدق الحب لا يرتبط ببداوة أو حضر .. وقد أجبتُ عن ذلك فى موضعه (١)

والباحث يرى : أن عمر فى قصة حبه كان واقعياً ، يدرك الجمال فى عناصره المتعددة من إنسانية وروحية ، وجسدية ، ويقدره قدره ..
وعلى يد عمر استوفت القصة مقوماتها المفترضة من فكرة وحدث وشخوص مختلفة فى إطار زمانى ومكانى ، وكان فيها عنصر التشويق والمصادفة المعقولة .. كل ذلك فى لغة سهلة ، وطريقة أداء مناسبة .

وقد لاحظتُ أن قصة عمر تتألف من مجموعة مشاهد - ربما يتكرر بعضها - بيد أن عمر - بما له من قدرة على التعبير - استطاع أن يرسم لنا قصة حبه ، مصوره ومجسَّدة ، واختار خطوطها وألوانها من زحمة الحوادث التى عرض لهــــا .
وبطل القصة: صاحب دعابة ومرح ، لا فحش ودعارة ، وان ما جاء فى قصته يوهم عكس ذلك إنما كان على سبيل إظهار الموهبة والمقدرة .
وبطلة القصة : اختارها عمر من الأشراف والبيوتات العالية وكثيراً ما استعار لها اسما غير حقيقى ، ولربما جعل الاسم الواحد مستعارا لفتاتين أو اكثر ، فهند مثلا ليست شخصية واحدة بل لبستْ أثواب عددٍ من الشخصيات وقامتْ بأكثر من دور .

---

١ - سبق الحديث ص ١٩

فالقصة - عند عمر - زاخرة بحياة أشخاصها المختلفة التى أجاد عمر معالجتها فى عصره ، وهذا ما جعلها تتسم بميسم الخلود .
فالقارىء فى قصة عمر بن أبى ربيعة ما يكاد يقروها إلا ويحسُّ - ربما بدافع الفطرة أو العاطفة - أن عمر بدا أمامه ، طاويًا هذه القرون التى تفصل بينهما ، ليحمله إلى مرابع أنسه ومجالس لهوه وسمره ، كما يتشوق القارىء لمغامراته التى أودعها شعره الذى قصره على الحب ورآه أفضل مواضيع الشعر .

كما أبدع فى تصوير بيئة القصة وحياة مجتمعه الذى عاش فيه أشخاص القصة ، فصور عواطفهم التى تنوعت أنماطها ، لهذا رأينا البيئة الاجتماعية عنده مسرحًا للحب ومزرعةً للشوق .
(والمرأة لا تختلف عن الرجل فى شئون الحب ، وقد تكون هى البادئة وإن تلكأت فى إظهاره للرجل ، ولربما أخذت زمام المبادرة ، وقد تحب اكثر من رجل واحد .. ثم لا تلبث حتى تأخذ فى المفاضلة ويطغى حبها للواحد على الآخر) (١)

وقصة عمر ذات طابع مسرحى ، قد تتعدد فيها المشاهد ، كما فى رائيته أو قصته مع "نعم" ، وقد تكون فصلا واحدا كما فى داليته أو قصته مع "هند" ، وبعضها لا يخلو من التخيُّل والتمثيل .

وقد لاحظت أن القصة عند عمر من النوع غير التحليلى ، فهى - تدور فى نطاق حادث من الأحداث فهى أشبه بومضة مركزة على شىء خاص ، تفتقد إلى التطوير الدرامى ولعل مرجع ذلك إلى أن سرعة

---

١ - راجع د . جبور ص ١٦

مرور الوقت بانقضاء الليل مثلا ثم المفاجأة بالأزمة التى تتمثل فى ظهور الصباح غالبا هذا الوقت المنتهى سريعا مع اللذه لا تهيىء فرصة للتمهيد الدرامى أو تطويره .

وطبعيٌ أن يكون عمر قد أفاد من السابقين فى بعض ألفاظه ومعانيه بيد أنه تمَيَّز عنهم بأسلوبه القصصى الذى زاد فيه ، وحواره المباشر المفتوح الذى كشف كثيرًا من عاداتِ المجتمع وحرية المرأة وطريقة كلامها .. وقد ترك هذا كله أثرا واضحا فى معاصريه ، فأعجبوا بقصته ، وراحوا ينسجون على منوالهـــا !

كما خالف عمر السابقين فى كونه لم تستوقفه مظاهر الطبيعة إلا إذا امتزجت بأحداث قصته ! ولم تهمَّه إلا بمقدار ما يمكنه من الاتكاء عليها للتغزل بمحبوبته ! فهو لم يصف الأطلال لذاتها بل لأنها من بقايا صاحباته ! حتى أماكن الحج ومناسكها لا تستوقفه إذا تغيبت عنها المرأة ، فالغزل والتشبيب عنده غاية ، ولم تعد وسيلة كما كانت عند القدمـــاء .

ولعل ما يميز أسلوب عمر أنه فاق معاصريه بسهولة اللفظ ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى وإنطاق القلب ، ومخاطبة النساء وإثبات الحجة .. فهو إن اعتذر أبرأ وإن تشكّى أشْجَى !

ولهذا كله وجدت القصة على يد عمر نوعا من التطويل والتعقيد والإغناء فارتفع بها إلى مستوى جديد لم تبلغه القصة الشعرية منذ امرىء القيس حتى زمن عمـــر .

***

المصادر والمراجع

* اتجاهات النقد الأدبي العربي د . محمد السعدى فرهود ط القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
* أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام . بطرس البستانى طبعة بيروت ١٩٧٩ م .
* الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ط دار الكتب المصرية ١٩٢٧ م .
* تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام د . شكرى فيصل ط / ٥ بيروت .
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف ط / ٥ دار المعارف مصر .
* حب ابن أبى ربيعة وشعره د . زكى مبارك ط / ٣ مصر ١٩١٩ م .
* حديث الأربعاء د . طه حسين م ٢ جـ ٢ ط / ٢ بيروت ١٩٨٠ م .
* دراسات فنية فى الأدب العربى د . عبد الكريم اليافى ط / ١ ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .
* ديوان الأعشى الكبير - ميمون بن قيس - شرح د . محمد حسين ط مكتبة الآداب بالجماميز .
* ديوان امرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط / ٣ دار المعارف مصر ١٩٦٩ م .
* ديوان الخنساء ط دار صادر بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

* ديوان زهير بن أبى سلمى ط دار الكتب العلمية بيروت .
* ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس تحقيق عبد العزيز الميمنى ط دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
* ديوان عنتره بن شداد تحقيق فوزى عطوى ط / ١ بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
* ديوان النابغة الذبيانى . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط دار المعارف مصر .
* سكينة بنت الحسين د . بنت الشاطىء ط دار الهلال .

* شاعر الغزل عمر بن أبى ربيعة . عباس العقاد ط دار المعارف بمصر .
* شرح ديوان طرفة بن العبد تحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ط دار الحياة بيروت .
* شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط / ٣ القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
* شرح المعلقات السبع للزوزنى ط دار الجيل بيروت .
* شعر مروان بن أبى حفصه تحقيق د . حسين عطوان ط دار المعارف بمصر ١٩٧٣ م .
* الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى جـ ٢ ط دار الثقافة بيروت لبنان .
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أميه د . شوقى ضيف ط/٣ دار المعارف مصر ١٩٧٦ م .

* عصر القرآن . محمد مهدى البصير ط / ٣ بغداد ١٩٨٧ م .
* عمر بن أبى ربيعة جـ ٣ حبه وشعره جبرائيل جبور ط / ٢ بيروت ١٩٧٩ م .
* عيون الأخبار . ابن قتيبة ط / ١ دار الكتب مصر ١٩٣٠ م .

* الغزل عند العرب . حسان أبو رحاب ط / ١ القاهرة ١٩٤٧ م .
* فن القصة . محمد يوسف نجم ط دار الثقافة بيروت .
* فن كتابة القصة - حسين القبانى ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

* قصة الأدب فى العالم . أحمد أمين وزكى نجيب محمود ط القاهرة ١٩٤٣ م .
* قصص النادى الثقافى أبو القاسم الشابى تونس عدد ٧٢ بقلم محمد الباردى .
* الكامل فى اللغة والأدب للمبرد جـ ١ ، ٢ ط مكتبة المعارف بيروت .

* المقتطف م ٩١ جـ ١ بقلم جبرائيل جبور عدد يونيو ١٩٣٧ .
* المقتطف م ١٠٨ جـ ٣ بقلم محمد فهمى عدد مارس ١٩٤٦ .
* الموشح للمرزبانى تحقيق على محمد البجاوى ط دار نهضة مصر ١٩٦٥ م .

* * * * *
* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٣٩٩٢ / ١٩٩٢

الترقيم الدولى
I . S . B . N
977 - 00 - 3276 - X